# العلمانية بين النظرية والتطبيق*

إعداد الدكتور:
محمد محمد محمد عيسى**

## ملخَّص البحث

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين ... أما بعد ....

فلقد حاولت قوى الاستعمار – وما زالت – أن تفرض على الفكر الإسلامي فى مجال السياسة والاجتماع، والنفس الإنسانية مفاهيم تختلف اختلافاً أساسياً مع مقومات هذا الفكر، ومتعارضة أساساً مع مقررات الإسلام.

وقد ظهرت نظريات متعددة فى السنوات الأخيرة تدعو إلى الفصل بين الدين والدولة، وبين الأخلاق والسلوك، وبين الدين والمجتمع، وتحاول أن تفرض مفهوماً غريباً كل الغرابة على النفس العربية الإسلامية التى تستمد شخصيتها وذاتيتها من الإسلام الذي صاغها منذ ما يزيد عن أربعة عشر قرناً.

وتقوم هذه النظريات على إعلان الفصل بين الدين والدولة.

وقد تعددت هذه النظريات واستشرى خطرها وأثرها فى الفكر الإسلامي والمجتمعات الغربية تحت تأثير عوامل تاريخية بعيدة المدى فرضت هذا التيار منذ وقت بعيد.

---

* أجيز للنشر بتاريخ ٤/٦/٢٠٠٥م.

** أستاذ مساعد – قسم الدراسات الإسلامية – كلية الشريعة والقانون– جامعة الإمارات العربية المتحدة.

وكان ذلك نتيجة للصراع القوى الذى قام بين المسيحيين وبين الفلسفة اليونانية، وفى مواجهة كشوف العلم ومدى تقبل الطبقة الأوربية للدين، ومدى نتائج ذلك الصراع الضخم بين العقائد السماوية والفلسفات الوثنية، وما جرى من تحريف واضطراب فى قيم هذه العقائد.

وكان أبرز هذه الدعوات " العلمانية"، ولا شك أن المسلمين والعرب يواجهون اليوم حملة ضارية من أخطر حملات الحرب النفسية والتشكيك وتشويه المفاهيم والقيم.. وهى تستهدف التأثير على أمتنا وحملها على الاستسلام والهزيمة، وإذا كانت أمتنا قادرة دائماً على كشف هذه المخططات واعية لهذه المؤامرات، فإن أخطر ما يواجهها الآن هو الحرب في داخل القيم.. هذه القيم التي هي السلاح الوحيد والأقوى في مجابهة الغزو ومواجهة العدو.. ذلك أن محاولة تحطيم مقومات أمتنا السياسية والنفسية والأخلاقية والدينية إنما هو الطريق إلي إخراج أجيال ضعيفة مهزوزة العقيدة لا تستطيع احتمال المقاومة والوقوف في وجه العدو.

لذا رأيت في هذه الدراسة أن أقوم بكشف هذا الزيف الذي يحمل لواءه الاستعمار وأذنابه حول الدين والدولة.

ولقد جاءت هذه الدراسة على النحو التالي:-

تعريف العلمانية.

أسباب نشأة العلمانية.

انتقال العلمانية إلى العالم الإسلامي.

العلمانية في التطبيق.

مناقشة فكرة فصل الدين عن الدولة ورد شبهات العلمانيين.

موقف الإسلام من العلمانية.

**فقمت بعرض هذا الفكر من حيث المفهوم، والنشأة، والأسس والمبادئ التي يقوم عليها. وذلك من واقع كتب القوم أنفسهم أو من نصوص نقلها عنهم كتاب ومفكرون محايدون أو كتاب ومفكرون مفتونون بتلك التيارات والمذاهب أو آخرون وقفوا على أكثر سلبياتها مما تحتويه هذه التيارات.**

**كما قمت بمناقشة القوم في مبادئهم مناقشة علمية في ضوء العقل والعلم والواقع، ثم مقابلتها بحقائق الدين الإسلامي وعقائده بغية الكشف عن حقيقة هذاالفكر.**

**والله نسأل أن يتقبل منا هذا العمل، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم وأن ينفع به طلاب العلم والمعرفة.**

**إنه ولي ذلك والقادر عليه**

## تمهيد:

لقد اقتضت حكمة الله تعالي أن يجعل دين الإسلام خاتماً للأديان كلها وأن يختار له سيدنا محمداً ﷺ رسولاً ونبيا وأن يجعل في هذا الدين الخاتم الخالد ما بقيت السماوات والأرض، صفات الثبات في أصوله وأسسه، وحفظ هذه الأصول من التحريف والتبديل، وجعل فيه صفات المرونة واليسر ليساير كل عصر وكل جيل... ولهذا فقد أنقذ الله به البشرية من ضلالات، وعلا بها من سفالات وأيقظها من سبات.

من هنا أدرك أعداء الإسلام أن أصول الإسلام وأسسه المتمثلة في القرآن والسنة هما مصدرا القوة الإسلامية، وأنه لا أمل في استعباد المسلمين

ما داموا يطبقون إسلامهم على حياتهم كنظام اجتماعي وسياسي واقتصادي وأخلاقي.

لذا فقد وضعوا أسلوباً جديداً لمقاومة الإسلام وهو: محاولة إبعاده عن مجال الحياة وإحلال القوانين الغربية محل القوانين الإسلامية، وبذلك يصلون إلى ما يريدون من هدم العقيدة الإسلامية، وإخراج المسلمين من نطاق التوحيد إلى نطاق الشرك. ذلك أن الدولة الإسلامية هي جزء من الدين الإسلامي، ويستحيل في عرف الإسلام أن يقوم دين بغير دولة، وإلا انهدم الجزء الأكبر من هذا الدين، وهذا ما قصد إليه أعداء الإسلام حين نادوا في المجتمعات الإسلامية بفكرة إبعاد الإسلام عن مجال التطبيق الواقعي والاستعاضة عنه بنظام الغرب وقوانينه، وهو ما عرف في التاريخ [بالفصل بين الدين والدولة].

وإمعاناً في التضليل والخداع سماها الفكر الغربي " بالعلمانية " وهو اصطلاح يوحي للوهلة الأولى بصواب الدعوة واستقامة الطريق، فمن الذي يرفض أن يحيا حياة تعتمد في مقوماتها على أساس من العلم الصحيح إلا أن يكون مخبولا إلا أن هؤلاء قد انكشف غرضهم حين وضعوا الدين والغيبيات في الجهة المقابلة للعلمانية وقالوا للناس إما هذا وإما ذلك، ومن هنا أصبح المعنى الحقيقي للعلمانية هو اللادينية أو النظام الذي يستبعد الدين والغيبيات عن مجال الحياة.

وقد تناسي هؤلاء المضللون أن الدين هو لون من ألوان العلم اليقيني ﴿وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنْ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنْ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ﴾[1] وأن الغيب هو الحقيقة العلمية الوحيدة المستيقنة من وراء التجارب والبحوث وأن العلمية في ضوء التجارب والنتائج الأخيرة مرادفة تماماً للغيبية في الذرة والإلكترون والطاقة والكهرباء وغيرها من المصطلحات التي يقوم عليها العلم وما هي إلا ضرب من الغيبيات"[2].

وعلى أية حال فوضع العلمانية في مقابل الدين هو ضرب من الجهل بحقيقة العلم والدين على السواء.وهو نوع من التضليل حاول أعداء الإسلام أن يخدعونا به، فنادوا في المجتمعات الإسلامية بعزل الدين عن معترك الحياة والاكتفاء منه بالجانب العقدي الذي يجعل مكانه الوحيد هو المسجد، فالإسلام صلاة وزكاة وصيام وحج فقط، ولا مكان له في معترك الحياة فهو دين لا دولة، وعقيدة لا شريعة والتزام فردي لا تطبيق جماعي، فهل لمثل هذه الدعاوى مجال في الإسلام؟

الحق إننا لن نصدر أحكاماً مسبقة، وإنما سنبحث الموضوع بحثاً منهجياً علمياً فنرجع إلى مفهوم المصطلح وظروف نشأته والعوامل التي ساعدت على انتشاره. ثم نبين أثره على المجتمعات التي نشأ فيها ثم نوضح كيف فُرِضَت

(١) سورة البقرة من الآية (١٢٠ ).
(٢) راجع في هذا الشأن؛ د. سعد الدين السيد صالح، العقيدة الإسلامية، ص١٢٤.

هذه الفكرة على المجتمعات الإسلامية، وما النتائج التي أثمرت عنها، ثم نقوم بعرض بعض شبهات العلمانيين القدامى والمعاصرين مع مناقشة لهذه الأفكار مناقشة علمية بعيدة عن الغلو والشطط ملتزمين الحيدة العلمية.

وبعد ذلك نبين موقف الإسلام من هذا التيار الوافد.

## المبحث الأول
## تعريف العلمانية

العلمانية من الكلمات حديثة الاستعمال في اللغة العربية إذ لم يكن لهذه الكلمة -بلفظها ومفهومها- وجود في المجتمع الإسلامي عبر تاريخه المديد، بل كانت وليدة المجتمعات الغربية غير الإسلامية لظروف وملابسات خاصة بهذه المجتمعات أدت إلى ظهور هذه الكلمة. والمشهور في النطق بهذه الكلمة وجهان:

فالبعض ينطقها بفتح العين وسكون اللام "العَلْمانية"، وعليه جرت بعض المعاجم اللغوية، كالمعجم الوسيط حيث جاء فيه "العَلْماني نسبة إلى العَلْم بمعنى العَالَم وهو خلاف الديني والكهنوتي"(٣). وهناك من ينطقونها بكسر العين "العِلْمانية نسبة إلى العِلْم بكسر فسكون وهذا هو الأشهر"(٤). يقول د. سفر عبد الرحمن الحوالي: لفظ العلمانية ترجمة خاطئة لكلمة

(٣) انظر المعجم الوسيط، ص٢/٦٣٠.
(٤) د. يوسف القرضاوي، الإسلام والعلمانية وجهاً لوجه، ص٥١.

(secularism) في الإنجليـــزية أو (secularite) بالفرنسية، وهى كلمة لا صلة لها بلفظ العلم ومشتقاته على الإطلاق.

فالعلم في الإنجليزية والفرنسية معناه "science" والمذهب العلمي نطلق عليه كلمة "scientism" والنسبة إلى العلم هي "scientific" أو "scientifique" في الفرنسية.ثم إن زيادة الألف والنون غير قياسية في اللغة العربيـــة، أي في الاسم المنسوب، وإنما جاءت سماعاً ثم كثرت في كلام المتأخرين: " روحاني، وجسماني، ونوراني..... ".

والترجمة الصحيحة للكلمة هي "اللادينية" أو "الدنيوية" لا بمعنى مـــا يقابل الأخروية فحسب، بل بمعنى أخص هو مالا صلة له بالـــدين، أو مـــا كانت علاقته بالدين علاقة تضاد.

وتتضح الترجمة الصحيحة من التعريف الذي تورده المعاجم ودوائـــر المعارف الأجنبية للكلمة.

تقول دائرة المعارف البريطانية مادة "secuiorim" "هي حركة اجتماعية تهدف إلى صرف الناس وتوجيههم من الاهتمام بالآخرة إلى الاهتمام بهـــذه الدنيا وحدها".

ذلك أنه كان لدى الناس في العصور الوسطى رغبة شديدة في العزوف عن الدنيا والتأمل في الله واليوم الآخر، وفي مقاومـــة هـــــذه الرغبـــــة

طفقـــت الـــ (secuiarism) تعرض نفسها من خلال تنمية النزعة الإنسانية، حيث بدأ الناس في عصر النهضة يظهرون تعلقهم الشديد بالإنجازات الثقافية والبشرية وبإمكانية تحقيق مطامحهم في هذه الدنيا القريبة.

وظل الاتجاه إلى الـــ (secuiarism) يتطور باستمرار خـــلال التـــاريخ الحديث كله، باعتبارها حركة مضادة للدين ومضادة للمسيحية ".

وعلى ضوء هذا المفهوم للعلمانية في التفكير الغربي، قدم عـــدد مـــن علماء الإسلام المعاصرين عدة تعريفات لها متفقة في المعنى.

يقول الدكتور يوسف القرضاوي في تعريف العلمانية: "إنهـــا عـــزل الإسلام عن الدولة وعن توجيه الحياة العامة وعن قيادة المجتمـــع، وبعبـــارة أخرى العمل على سيادة المفهوم الغربي لما يسمى ديناً وما يـــسمى دولـــة وتأكيد الفصل بينهما فكرياً وعملياً في كل بلد دخله الاستعمار، واصطناع الهُوى السحيقة بينها حتى لا يعود في يوم قريب إلى الدين سلطانه فيـــسيطر على الدولة ويوجهها"(٥).

## المبحـــث الثاني
## أسباب نشـــأة العلمانية

العلمانية كحركة مناهضة للأديان لها جذورها القديمة، وإن كانت لم

(٥) الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا، ص٥٣.

تتسم بهذا الاسم إلا حديثا، فقد بدأت تظهر معالمها كتيار فلسفي في القرنين السابع عشر والثامن عشر على يد مجموعة من الفلاسفة الأوربيين.

ذلك أننا حين نتصفح التاريخ الماضي سوف نجد أن الإنسان يقنن لنفسه في بيئة اليونان، وكان يرفض أحياناً أن يخضع لنظم لها طبيعة دينية.

وحين بعث الله عيسى -عليه السلام- برسالته إلى قومه، ومعه الكتاب المنزل من السماء وهو الإنجيل، أخذ يدعو قومه إلى عبادة الله وحده ولم يكن للمسيح -عليه السلام- دولة تحمي دينه، فقد كانت مدة دعوته ثلاث سنوات، ولقيت دعوته ألواناً كثيرة من الاضطهاد والتعذيب من اليهود تارة، والرومان تارة أخرى، وحاق بأتباعه الخُلَّص ألوان شتى من العذاب أودت بحياة الصفوة منهم.

وفي خضم هذه الأحداث الجارفة لم يأمر المسيح أتباعه بكتابة الإنجيل ولم يعِد الله -عز وجل- بحفظ الإنجيل من التحريف والتبديل.

فتناقلت الأجيال إنجيل عيسى محفوظاً بالذاكرة، وبمرور الوقت عبث النسيان بالذاكرة مما جعلها غير قادرة على تذكر النص الكامل مما أدى إلى أن يضيف الإنسان من خياله ما انتقصه النسيان من صورة الإنجيل ويضاف إلى ما سبق أن حفاظ النص القدامى كانوا يلقون على أتباعهم النص ممزوجاً ببعض الشروح والتعليقات، مما أدى إلى أن المستمع والتابع لا يستطيع أن يميز بين ما هو أصيل في النص وما هو دخيل عليه. وبزيادة الشروح والتعليقات

تعددت الأناجيل وتعدد رجال من القديسين الذين وضعوا أسماءهم على هذه الأناجيل فكان (إنجيل متى، ويوحنا، ومرقص، و برنابا) أناجيل تعددت واختلفت بينها الكثير من موضوعاتها، وأصبحت الأناجيل لا تنسب إلى الله وإنما تنسب إلى البشر.

وانتقل الدين المسيحي إلى أوربا على هذا النحو، يراه الأوربيون ديناً مترلا من عند الله، وهو في الحقيقة كتاب محرف قد دخل عليه البشر بأهوائهم وأغراضهم.

وننتهي من هذا العرض السريع إلى أن الغرب لم يحكم يوما بمنهج الله ﷻ. وإنما الصحيح أنه قد حكم في فترة من الفترات تمثلها العصور الوسطى بما كتبه البشر بأيديهم، وتسلط بعضهم على بعض باسم الله والله من ذلك براء، وأوهم البعض بأنهم يحكمونهم من خلال الدين المترل، والدين بعيد عن ذلك كله بعد الأرض عن السماء، وهذا النظام ثارت عليه الشعوب الأوربية ولفظته من حياتها الاجتماعية وتمردت عليه بكل قوة، ودعت بضرورة فصل الدين عن الدولة، مع قصر السيادة على سيادة الدولة وترك حرية الاعتقاد لمن يريد بشرط أن لا تؤثر هذه الحرية على سيادة الدولة.

فالعلمانية إذن إحدى ثورات العقل المسيحي ضد سلطة الكنيسة المسيحية، وقد تجمعت في أوربا أسباب لنشأة العلمانية أقنعت رجال النهضة بأنه لا سبيل إليها إلا باستبعاد رجال الكنيسة والدين عن مجال التوجيه في

الحياة، وتبدو نشأة العلمانية في أوربا أمراً منطقياً مع سير الأحداث هناك إذا رجعنا إلى الأسباب الآتية.

## أولا: الطغيان الديني:

في العصور الوسطى -المظلمة- في أوربا كانت السلطة السياسية المطلقة تتركز في أيدي البابوات، بعد أن فطنوا إلى ما لهم من حق في توقيع عقوبة الحرمان من الدين على الأشخاص المخالفين لتعاليم المسيحية وذلك بموجب ( صكوك الغفران - وجزاءات الحرمان ) ذلك السلاح الخطير الذي تسلحت به الكنيسة، والذي كان له أبلغ الأثر فيما اكتسبته البابوية من مغانم، فقد كان للبابا بموجب هذا السلاح، أي يحل الأفراد المخالفين لتعاليم المسيحية، من يمين الولاء والإخلاص الذي عقدوه في قلوبهم، بينهم وبين ممثلي السيد المسيح، وكان الشخص الذي يحرمه البابا يفقد أهليته للتمتع بكافة حقوقه المدنية، ويسقط اعتباره، وينبذه مجتمعه، وتتنكر له أسرته وعشيرته، بل ويستحل دمه، فيباح قتله دون تقدير أو اكتراث، لذلك أصبح سلاح الحرمان من أمضى الأسلحة التي تسلح بها البابا وتحصن في ظلها"[٦].

وبناءً عليه فقد أوعزت الكنيسة الكاثوليكية لأتباعها أنها المنقذ الوحيد للبشرية من وهدات الخطيئة التي وقع فيها آدم - عليه السلام- تلك الخطيئة التي

(٦) د. مصطفي الخشاب، تاريخ الفلسفة والنظريات السياسية، ص٢٣٤.

ظل أبناؤه يتوارثونها جيلاً بعد جيل، كما ألقت في روع هؤلاء الأتباع أنه لا أحد منهم بمنجى من التهلكة والعذاب ما لم يكن من أتباع الكنيسة"[٧].

وهكذا سلكت في معاملة رعاياها في فترة العصور الوسطى أسلوب التهديد والوعيد، بديلا عن أسلوب الترغيب والتبشير، ومن ثم تحولت من هيئة شعارها المحبة والمساواة بين الناس إلى هيئة شديدة التعنت والتعصب لمعتقدها"[٨].

لهذا كان حقا على أوربا أن تخلع هذا السلطان الطاغي، وتنسلخ منه إحساسا بالكرامة، وفرارا من الذل والهوان وسعيا إلى التقدم، وإن كانت في حركتها هذه لم تنحر الصواب؛ إذ كان من المفروض أن تستبدل بالدين المزيف الدين الصحيح وقد كان قريباً منها ولكنها استبدلت بالمسيحية المحرفة الإلحاد فخرجت من ضلالٍ إلى ضلال.

## ثانياً: الطغيان السياسي:

طفقت الكنيسة تعمل على تدعيم أركانها وتثبيت دعائمها كسلطة سياسية في أوربا الغربية بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية في القرن الخامس الميلادي، وذلك عن طريق إظهار فكرة سمو الكنيسة والدولة، حيث إن الأولى من وجهة النظر المسيحية، تعالج شئون الروح، وغنى عن البيان أن

(٧) اندرية كريسون، تيارات الفكر الفلسفي، ترجمة نهاد رضا، ص١٤١ (بتصرف).
(٨) المرجع السابق ص٢٤٢ (بتصرف).

الروح أرفع شأنا وأعلى منزلة من الجسد فقد روجت الكنيسة لفكرة الثنائية في تكوين الإنسان في حياته ووجوده، وأنه مكون من روح وجسد، وأن لكل مصدر توجيهاً، فالروح مصدر توجيهها الكنيسة والدين، والجسد مصدر توجيهه السلطة الزمنية والحكومة المدنية الدنيوية، وكانت الكنيسة تنظر كذلك إلى حياة الإنسان على أنها حياتان منفصلتان، حياة دنيا ودنس ورجس، وحياة آخرة خير وبر وبركة، وأنه يجب أن ينقذ الإنسان نفسه من براثن هذه الدنيا عن طريق رسل الله أو نوابه في الأرض، وهم رجال الكنيسة الرسولية الرومانية.

وبناءً على تعاليم الخطيئة الموروثة فإنه لا خلاص لعالم الجسد في هذه الحياة الدنيا إلا باتباع أوامر الروح، وبالمفهوم السياسي لا خضوع ولا التزام للسلطة الزمنية إلا إذا استمدت تعاليمها وأوامرها من السلطة الدينية، أي أن طاعة الحكومة مشروطة باتباع تعاليم الدين، وإذا تناقضت السلطتان الدينية والزمنية فإن الطاعة تكون واجبة لله أكثر من وجوبها لحكام البشر.

وهكذا أضحت الكنيسة تتعصب لهذا المعتقد، وتعمل على ترويجه بين الأوساط الثقافية آن ذاك، وتتحين الفرصة لتعلق قيام إمبراطورية مسيحية مقدسة حتى أتيح لها ذلك، عندما باركت " شارلمان " الفرنسي قيصرا مقدسا على الإمبراطورية الرومانية، وبذلك استطاعت الكنيسة البابوية أن تُدخل مَبْدَأً جديداً في السياسة ألا وهو أن الملك أو الإمبراطور لا يعترف به

إلا إذا قام البابا بنفسه بمسحه وتعميده، ووضع التاج على رأسه حتى يستوجب الطاعة والولاء من محكوميه"[٩].

ولقد أصدر البابا "نقولا الأول" بياناً قال فيه: "وأن ابن الله أنشأ الكنيسة بأن جعل الرسول بطرس الأول أول رئيس لها وأن أساقفة روما ورثوا سلطان بطرس في تسلسل مستمر متصل؛ ولذلك فإن البابا ممثل الله على ظهر الأرض يجب أن تكون له السيادة العليا والسلطان الأعظم على جميع المسيحيين حكاما كانوا أو محكومين"[١٠].

وبهذا رأت الكنيسة أن لها سلطاناً على الملوك والأمراء فضلا عن الرعية، وأن استقرار ملك هؤلاء الحكام على قدر ما يقدمون للكنيسة من طاعة وولاء، والويل لمن أظهر التبرم على تعاليمها.

فقد أعلن البابا "جريجوري السابع" أن الكنيسة بوصفها نظاما إلهيا، خليقة بأن تكون صاحبة السلطة العالية، ومن حق البابا وواجبه بصفته خليفة الله في أرضه أن يخلع الملوك غير الصالحين، وأن يؤيد أو يرفض اختيار البشر للحكام أو تنصيبهم حسب مقتضيات الأحوال"[١١] ولعل خير مثال على ذلك ما سجله التاريخ الأوروبي عندما اختلف الإمبراطور "هنري الرابع" مع البابا "جريجوري السابع "حول مسألة التعيينات، أو ما يسمى التقليد العلماني

(٩) د. مصطفي الخشاب، تاريخ الفلسفة والنظريات السياسية، ص٢٣٤-٢٤١ (بتصرف).
(١٠) محمد قطب، مذاهب فكرية معاصرة، ص٤٥.
(١١) سفر عبد الرحمن الحوالي، العلمانية، ص١٣٥.

فحاول الإمبراطور أن يخلع البابا، ورد البابا بخلع الإمبراطور، وحرمه، وأحل أتباعه والأمراء من ولائهم له، وألَّبهم عليهم، فعقد الأمراء مجمعاً قرروا فيه أنه إذا لم يحصل الإمبراطور على المغفرة لدى وصول البابا إلى ألمانيا فإنه سيفقد عرشه إلى الأبد، فوجد الإمبراطور نفسه كالأجرب بين رعيته، و لم يكن في وسعه أن ينتظر وصول البابا، فضرب بكبريائه عرض الحائط، واستجمع شجاعته وسافر مجتازا جبال الألب والشتاء على أشده، يبتغي المثول بين يدي البابا بمرتفعات كانوسا في تسكانيا وظل واقفا في الثلج في فناء القلعة ثلاثة أيام وهو في لباس الرهبان متدثراً بالخيش حافي القدمين عاري الرأس يحمل عكازه مظهراً كل علامات الندم وأمارات التوبة حتى تمكن من الظفر بالمغفرة والحصول على رضا البابا العظيم"[١٢].

وقد مارست الكنيسة هذا السلطان على الحكام والمحكومين، ولكن سلطان الكنيسة أخذ يتداعى في نهاية القرون الوسطى، وذهب الملوك والأباطرة يعلنون أنهم حكام الأرض بمقتضى نظرية التفويض الإلهي أو الحق الإلهي، وأنه لا سلطان للبابا عليهم إلا السلطان الروحي فقط، وبتمرد الملوك والأباطرة على سلطان الكنيسة، وتداعي سلطان البابوات باستخلاص الملوك للسلطة الزمنية وقصرها عليهم تكون أوربا قد استبدلت طغياناً بطغيان، وكلاهما يستند زوراً وبهتاناً إلى الله، والفارق الوحيد بينهما أن الطغيان

(١٢) فيشر، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص١/٢٦٠.

الأخير يذهب بالناس بعيداً عن ساحة الدين والعقيدة، ويقيم السياسة على غير أساس من الدين.

## ثالثاً: الطغيان المالي:

إن المتصفح للأناجيل المسيحية يلاحظ أنها كانت تركز على الزهد في الدنيا والعزوف عن متاعها، وتدعوا أتباعها أن يكتفوا بعيش الكفاف لكي يدخلوا الجنة، وقد ضرب المسيح – عليه السلام – في سيرته ومواعظه أروع الأمثلة في الزهد والتقشف.

جاء في إنجيل مرقص: "من أراد الملكوت فخبز الشعير والنوم في المزابل مع الكلاب كثير عليه وأن مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غنى إلى ملكوت الله"(١٣).

ويقول لتلاميذه: "لا تقتنوا ذهبا ولا فضة ولا نحاسا في مناطقكم ولا مزودا للطريق ولا ثوبين ولا أحذية ولا عصا"(١٤).

كان المفروض أن يتقيد رجال الكنيسة بهذه التعاليم، لأنهم قدوة لغيرهم من بني جلدتهم، ولكن يبدو أن هذه النصوص كانت للناس فقط دون رجال الكنيسة، لأن الأغلبية منهم فتنوا في الدنيا ونسوا الآخرة مما أدى

(١٣) إنجيل مرقص، ١٠ / ٢٢.
(١٤) إنجيل مرقص، ١٠ / ١١.

بهم أن يمارسوا طغيانا ماليا على الناس بما تضعه على أعناقهم من تكاليف باهظة، وامتلكوا الموارد المدرة لذلك في الأملاك الإقطاعية والأرض الموقوفة ثم العشور، وكذا الضرائب المقررة من قبلهم والهبات ويسخرون من ليس له مال في خدمة الكنيسة.

يقول كريسون:" كانت الفضائل المسيحية كالفقر والتواضع والقناعة والصوم والورع والرحمة، كل ذلك كان خيراً للمؤمنين وللقسيسين وللقديسين وللخطب والمواعظ، أما أساقفة البلاط والشخصيات الكهنوتية الكبيرة فقد كان لهم شيء آخر: البذخ والأحاديث المتأنقة مع النساء، والشهرة في المجالس الخاصة والعجلات والخدم والأرباح الجسيمة والموارد والمناصب "(١٥).

ويقول ول ديوارت: "أصبحت الكنيسة أكبر ملاك الأراضي وأكبر السادة الإقطاعيين في أوربا، فقد كان دير "فلدا" مثلا يمتلك خمسة عشر ألف قصر صغير وكان دير "سانت جول" يملك ألفين من رقيق الأرض وكان الملك هو الذي يعين رؤساء الأساقفة والأديرة وكانوا يقسمون يمين الولاء كغيرهم من الملاك الإقطاعيين ويلقبون بالدوق والكونت وغيرها من الألقاب الإقطاعية... وهكذا أصبحت الكنيسة جزءاً من النظام الإقطاعي. وكانت أملاكها الزمنية –أي المادية– وحقوقها والتزاماتها الإقطاعية مما يجلل بالعار

(١٥) المشكلة الأخلاقية، ص١٦٧.

كل مسيحي متمسك بدينه، وسخرية تلوكها ألسنة الخارجين على الـــدين، ومصدراً للجدل والعنف بين الأباطرة والبابوات"(١٦).

ولقد كان ذلك سهلا على الكنيسة أن تمارس هذا النوع من الطغيان المالي ما دامت تملك السيطرة على أرواح الناس وقلوبهم فمـــن الـــسهل أن تصدر الأوامر فيطيع العبيد صاغرين.

## رابعاً: الطغيان العلمي:

لقد نشأ صراع بين الكنيسة وبين رجال العلم، ذلك أن الكنيسة قـــد تعدت حدودها في هذا المجال فألف رجالها في التاريخ والجغرافيـــا وعلـــوم الطبيعة ووضعوا نظريات ادعوا لها العلمية وصبغوها بصبغة دينية وعدوها من تعاليم الدين المسيحي وأصوله التي يجب الاعتقاد فيها ونبذ كل ما يعارضها، وكلما وصل العلماء إلى نظرية جديدة وجدوا الكنيسة تعارضـــها بنظريـــة مقدسة لا يجوز الخروج عليها حتى ولو أثبت الواقع المحس بطلانها، وكانت هذه هي بداية الصراع المشؤوم بين علم اللاهوت – الدين زعما – وعلـــم المادة والذي انهزم فيه الدين المسيحي هزيمة منكرة وسقط رجاله ســـقطة لم ينهضوا بعدها أبدا فقد أنفجر بركان العقلية في أوربا وحطم علماء الطبيعة هذه النظريات الكنسية وأعلنوا اكتشافاتهم العلمية التي أثبتتـــها التجـــارب الواقعية، فقد أعلن جاليليو نظرية دوران الأرض حول الشمس في مواجهـــة

(١٦) قصة الحضارة، ص١٤/٤٢٥.

نظرية الكنيسة في ثبات الأرض ودوران الشمس، وأعلن برنو نظرية الأفلاك المتعددة بناءً على الرؤية الواقعية بالمنظار في مواجهة نظرية الكنيسة في تحديد عدد معين من الأفلاك.

فقامت قيامة الكنيسة ورجالها الذين كفروا العلماء، وحرموا نظرياتهم، وصادروا كتبهم، واستحلوا دماءهم، وأنشؤوا محاكم التفتيش التي أحصت على الناس أنفاسهم، وارتكبت من الجرائم الشنعاء ما يندى له جبين الإنسانية، فقد عاقبت هذه المحاكم ثلاثمائة ألف، أُحرق اثنان وثلاثون ألف أحياء، كان منهم العالم الطبيعي "برنو" الذي حكمت عليه الكنيسة بالقتل واقترحت ألا تراق قطرة من دمه وكان ذلك يعني أن يحرق حيا، وكذلك عوقب "جاليليو" بالقتل؛ لأنه كان يعتقد بدوران الأرض حول الشمس"[١٧].

وفي عهد "قسطنطين" وخلفائه كانت العلوم تعتبر نوعاً من السحر أو الخيانة، وكانت النزعة الدينية نحو كراهية العلوم العقلية هي التي عبرت عن نفسها خير تعبير بالمثل القائل "الجهل أبو الإخلاص لله" وها هو ذا البابا "غريغورس" الكبير يؤيد هذا المثل فينفي من روما جميع المشتغلين بالدراسات العلمية ويحرق مكتبة "بلاتين"[١٨].

ويقول التاريخ الأوربي "إن الكنيسة قد فزعت فزعتها تلك حفاظاً على

(١٧) أبو الحسن الندوي، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص١٩٤.
(١٨) لطفي جمعه، الله أو الدمار، ص٤.

كيانها، الذي يقوم على الخرافة ويستند إلى انتشار الجهل بين الجماهير، وإنها خشيت على هذا الكيان أن يتصدع وينهار إذا انتشر العلم، وتبين للناس أن ما تقوله الكنيسة ليس هو الحقيقة المطلقة في كل شيء، ولا شك أن هذا -في جملته- صحيح. ولكن هذه المقالة تغفل شيئاً آخر مهما في هذا الشأن يعمد كثير من مؤرخي أوربا إلى إغفاله، وهو أن هذا العلم الذي قامت الكنيسة بحربه كان آتيا من مصادر إسلامية، وكان يحمل معه خطر انتشار الإسلام في أوربا، ومن ثم انهيار الكنيسة ذاتها حين ينهار الدين الذي تمثله وتدعى حمايته"(١٩).

ومهما يكن من أمر، فإن الكنيسة كان لها دور بارز وفعّال في تنفير أوربا من الدين المسيحي، وإحجامها عنه بعد تلك الصورة الكئيبة الأليمة التي قدمت بها الدين، فضلا عن الطغيان الرهيب الذي مارسه رجال الكهنوت باسم الدين في مختلف الاتجاهات.

وقد نلتمس لأوربا العذر كل العذر في أن تقف من دينها - الذي بالغت الكنيسة وتعنت رجال الكهنوت في تحريفه - هذا الموقف، فقد كان ذلك الدين بالفعل معوقاً عن الحياة مفسداً لها في كل اتجاه.

ومع مولد عصر النهضة الغربية، بدأ المجتمع الأوربي يشهد تحولا كبيراً

(١٩) محمد قطب، مذاهب فكرية معاصرة، ص٤٨.

في ميادين البحث الطبيعي فقلَّ الاهتمام بالأمور الغيبية، والحياة الآخـــرة، في مقابل ازدياد مطرد لدراسة الطبيعة.

وهنا إذن ثنائية في المجتمع الأوربي: هنا دولة وكنيسة، هنا مدني وديني، هنا حياة دنيوية غير مقدسة، وحياة أخرى كنسية لها قداستها، هنا دولة لها سلطة، وتريد أن تتوسع في سلطتها، وهناك كنيسة لها سلطة كذلك، وتريد أن تحافظ –على الأقل– على سلطتها في مواجهة سلطة الدولة، وهناك حياة مدنية ودنيوية تخضع للتغير والتطور، وهنا حياة دينية كنسية في منأى عـــن التغيير والتطور.

هذا مشكل لا يبرز إشكاله إلا وقت أن يتخاصم الطرفان ويمتنـــع أي منهما أن يخضع للطرف الآخر بسبب من الأسباب.

" كانت الكنيسة تكاد تكون صاحبة السلطة المسيطرة طوال القـــرون الوسطى في أوربا، حتى ابتدأ الإنسان الأوربي يكشف مجالا آخر يرى فيـــه استقلاله عن الكنيسة، ومجال البحث الطبيعي، ثم أخذ يشعر بوجود نفـــسه المستقل يوم أعلن قانون الجاذبية، وأخذ يعتز بنفسه يوم أن اســـتخدم قـــوة البخار في الصناعة، ثم كلما اكتشف قوة أخرى ابتعـــد عـــن الكنيـــسة، وسيطرتها، بل واتهم الكنيسة ونال من دين الكنيسة، فزادت اتهاماته بعد أن

عرف قوة الكهرباء وفجر الذرة، وبحث الفضاء"[٢٠].

والأوربي إذ يوجه اتهاماته للكنيسة وينال من دينها لم يكن ذلك بناء على أدلة علمية يقينية توجب إبعاد المسيحية، وإنما -في الأغلب- يستهدف من كثرة الاتهام والنيل والمحافظة على حريته في حركة البحث، وفي السلوك وفي ظل دولة قوية مستقلة عن الكنيسة وعن رأى رجال الإكليروس فيها.

ومشكلة تنازع السلطة بين الدولة والكنيسة، أو بين الدنيوي غير المقدس والكنسي المقدس تَصَوَّرَ جِلَّةُ بعض المفكرين في أنه يجب أن يكون -الحل النظري على الأقل- في توزيع السلطة وتقسيمها بين الطرفين، يكون للدولة مجال وللكنيسة مجال، تكون للدولة: الشئون السياسة والاقتصادية والتعليمية والتشريعية بما لا يمس الكنيسة. وتكون للكنيسة: شئون الأسرة في مراسيم الزواج، وطقوس الوفاة، ونظام الرهبنة والاكليروس. وهذا التقسيم أو الفصل بين السلطتين يأخذ اسم العلمانية "[٢١].

وقد ظل هذا المفهوم للعلمانية بأنها لا تعدو مجرد الفصل بين سلطتي الدولة والكنيسة معمولاً به في أوربا منذ أواخر القرن السادس عشر،

(٢٠) برتراندرسل، تاريخ الفلسفة الغربية، ترجمة زكي نجيب محمود، ص٢٧٤.
(٢١) د. محمد البهي، العلمانية والإسلام بين الفكر والتطبيق، ص١٩.

واستمرت طيلة القرنين السابع عشر والثامن عشر، وهذه الفترة تمثل العلمانية في مرحلتها المعتدلة.

## المبحث الثالث
## انتقال العلمانية إلى العالم الإسلامي

عرفنا فيما سبق أن مفهوم العلمانية يعني اللادينية:

معنى هذا أن الإسلام بمنهجه الشامل لا يلتقي مع العلمانية لأن الإسلام دين والعلمانية إنكار للدين. ودخول العلمانية في العالم الإسلامي معناه تعطيل الإسلام عن التطبيق، وإقصاؤه عن التأثير في حياة المسلم.

وغني عن البيان أن العلمانية ظهرت في أوروبا "نتيجة تسلط الكنيسة وتحالفها مع الظالمين على شعوب الغرب المختلفة، ووقوفها في وجه كل تفتح فكرى أو كشف علمي، وتجاوزها ذلك الحجر على العقول إلى حجر أخطر على القلوب، حين فرضت صكوك الغفران وقرارات الحرمان، وراحت تتاجر بها، وتتخذها وسيلة للكسب الحرام.

وإذا كانت سنة الله في الكون أن لكل فعل رد فعل مساوياً له في القوة ومضاداً له في الاتجاه، فلقد وقع الصراع صراع العلم مع الكنيسة وانتهى

بإعلان العلمانية التي تعنى فصل الدين عن الدولة، وتقلص سلطان الكنيسة داخل جدرانها"[٢٢].

"فإذا جئنا إلى حال الإسلام وجدناه لا يعرف "الدولة الدينية" ولا المجتمع المقدس، لأنه لا يعرف رجل الدين ولا المؤسسات الدينية، فهو ينكر الوساطة بين الإنسان وربه، ويرفض الكهانة والكهنوت، ومن ثم فهو لا يحتاج لمجتمعاته -كي تتطور- ما يقابل هذه المعاني والأفكار والمؤسسات- أي لا يحتاج إلى العلمانية ومؤسستها- لأنه لم يشهد فكراً شرعيا أو تطبيقاً مشروعاً، تلك الثنائية التي شهدتها أوروبا الكاثوليكية حيث نشأت العلمانية"[٢٣]، ولكن على الرغم من هذه الحقيقة الواضحة، وبرغم عدم حاجة المسلمين إلى العلمانية، فقد كان هناك عوامل ساعدت على انتقال هذا الفكر إلينا وكانت هناك وسائل أو مجارى حملت إلينا هذه الغثاء.

## أولا: عوامل انتقال العلمانية:

كانت عوامل انتقال العلمانية منها ما هو مخطط مرسوم، ومنها ما جاء عفواً بغير تخطيط، لكنها تجمعت لتساعد على انتقال هذا الفكر الجديد لتجد مكانا له في شرقنا الإسلامي.

### العامل الأول:

(٢٢) د. علي جريشه وآخر، أساليب الغزو الفكري، ص٧٠.
(٢٣) د. محمد عماره، نهضتنا الحديثة بين العلمانية والإسلام، ص٢٠.

سقوط الخلافة الإسلامية مما كان له أسوأ الأثر في انحلال الرابطة الاجتماعية في جميع أنحاء العالم الإسلامي، مما جعل الفرصة سانحة أمام المتربصين بالمسلمين وبالإسلام، للترويج للدعوات الإقليمية والتشجيع عليها.

## العامل الثاني:

ما آل إليه حال العالم الإسلامي بعد سقوط الخلافة الإسلامية من التفتت والتشرذم، وما نتج عن ذلك كله من حالة التخلف والانحدار المزري الذي أصاب المجتمع الإسلامي وانهيار حضارته، وما تزامن مع ذلك من تقدم علمي مذهل، بدأت أوروبا في تحقيقه ابتداءً من القرن السادس عشر، وظهور العبقريات العلمية الأوروبية، وما نتج عن التقدم في مجال العلوم من تقدم صناعي واقتصادي، ورغبة محمومة من العالم الغربي المتقدم الثورة ضد الدين حيث اقترنت سلطة المسيحية، ونفوذ الكنيسة بتخلف أوروبا إبان العصور الوسطى، فصار الإله الجديد لأوروبا هو العلم والآلة والمال، والرغبة في الدعوة لمبادئهم الجديدة بين شعوب الأرض "[٢٤].

## العامل الثالث: الهزيمة النفسية لدى المسلمين:

أعقب الاحتلال العسكري ثم إسقاط دولة الخلافة هزيمة نفسية خطيرة فترسب في نفوس المسلمين أن الغالبين هم الأعلى بما يحملون من حضارة

(٢٤) السيد أحمد فرج، جذور العلمانية، ص١٤، ١٥ (بتصرف).

مادية أوتوا أسبابها.

وإذا المغلوب مولعٌ بتقليد الغالب، فقد قلد المغلوبون الغالبين، قلدوهم في كل شيء حتى مع اختلاف الظروف واختلاف التكوين، ومن ثم كان تقبل العلمانية أمراً غير مستغرب.

## العامل الرابع: الغزو الفكري الذي مر بمراحل:

١- محاولة تنصير المسلمين.

٢- محاولة إخراج المسلمين من دينهم دون دخولهم النصرانية.

٣- محاولة إبعاد المسلمين عن دينهم بوسائل مختلفة، وتحت أسماء خادعة - التغريب - التحديث - التمدين - التحضر التغيير الاجتماعي، وعملت العلمانية في مجالاتها وشقت طريقها في مجاريها "[٢٥].

## ثانيا: وسائل نقل العلمانية أو مجاريها

### المجرى الأول: المستشرقون:

في كتابتهم التي اتخذت طريقها في الغرب لدى المبتعثين، أو اتخذت طريقها في الشرق لدى الدارسين والباحثين. وكان للشكل الذي اتخذه التأليف دخل كبير في إقناع السذج بتقدم هؤلاء، وكان للأسلوب العلمي الذي أخذه المستشرقون دخل كبير في ظن المسلمين خيراً بهؤلاء بينما كثيراً

(٢٥) الاتجاهات الفكرية المعاصرة، ص٧٠.

مما كتبوه حوى كثيراً من الافتراء، إما عمدا عن حقد وقصد إلى إضعاف عقيدة المسلمين وأفكارهم، وإما جهلاً منهم بالمصادر الإسلامية ساعد عليه جهلهم بلغة الإسلام اللغة العربية.

### المجرى الثاني: المبشرون:

وهؤلاء مارسوا ما مارسوه عن عمد تنفيذاً لوصية "زويمر" في مؤتمر القدس عام ١٩٣٥م، فنقلوا العلمانية من خلال نشراتهم وكتبهم ومن خلال التمثيليات والأفلام، ومن خلال المدارس المختلفة التي بدأت بالأجنبية ثم كان تأثيرهم على مناهج التعليم الوطنية"(٢٦).

### المجرى الثالث: المبعوثون والناقلون للفكر الغربي من أبناء المسلمين.

معنى ذلك وجود جيل من أبناء الشرق المسلم، نشأ في أحضان الثقافة الغربية، ونهل من معينها الآسن، سواء كان في الداخل عن طريق المؤسسات التعليمية التي انتشرت على نطاق واسع في البلاد الإسلامية، والتي اتسمت بالطابع الأجنبي، وأخذت على عاتقها مهمة محاربة الإسلام بإثارة الشبهات حوله، وتشويه صورة مبادئه، وأخلاقياته وتاريخه بل وأعلامه.

أو في الخارج عن طريق الإرساليات والمنح والبعثات الخارجية حيث

(٢٦) المرجع السابق، ص٧١.

لُقِّن هؤلاء جيداً، كيف ينظرون إلى الغـــرب ومنجزاتـــه، بكـــل التقـــدير والإعجاب، بل والانبهار بحضارته المعاصرة في مقابل احتقار وازدراء كل ما هو شرقي يحمل سمت أو طابع الإسلام.

وهذا هو غاية أعداء الإسلام ومنتهى مرادهم بعد أن قرروا "أن تغريب المسلمين يجب أن يكون بلسان من أنفسهم، ومن بين صفوفهم، وأن الشجرة يجب أن يقطعها أحد أبنائها"(٢٧).

وإنه لمن الضرورة بمكان أن يدرك المسلم تمام الإدراك أن هؤلاء هـــم أعداء الداخل، وهم أكثر خطورة على الإسلام والمسلمين من أعداء الخارج، لاسيما إذا قُدِّر لهؤلاء وأمثالهم اعتلاء مناصب قيادية في حكومات مجتمعاتهم الإسلامية، فإنهم يصبحون نقمة وبلاء على العباد والبلاد.

# المبحث الرابع
# العلمانية في التطبيق

## أولاً: مظاهر العلمانية في الحياة الأوربية

لقد كانت الدعوة العلمانية وليدة المجتمع الغربي إذ قامت على أساس فصل الدين عن الدولة، وإقصاء الشريعة المسيحية عن واقع الحياة، فكفرت

(٢٧) أنور الجندي، الإسلام في وجه التغريب، ص١٠٥.

أوربا بالله، وعبدت المادة، وألقت بالزهد المسيحي، وآمنت بالشره اليهودي، ورفضت أن تخضع نظمها الاقتصادية لله في أية صورة من الصور، ورضيت بعبادة فلاسفة الاقتصاد والحكم بما تمليه أهواؤهم فكان لزاماً عليها أن تدفع ضريبة ذلك من أمنها وطمأنينتها وأن تنتكس إلى مستوى الحياة البهيمية، حيث نسي الإنسان روحه، وأظلم قلبه، وتبلد إحساسه، وغرق في المتاع الحسي حتى غفل عن حكمة خلقه وسر وجوده ومصيره المحتوم في الدار الآخرة، إن الأوربي لم يعرف من الأديان إلا ديناً واحداً إيجابيا هو التعبد للرقي المادي.

وأما عن الجانب الثقافي فنتيجة ذلك خلق نوع بشرى تنحصر فلسفته الأخلاقية في مسائل الفائدة العملية، وأسمى ما يفرق بين الخير والشر عنده إنما هو التقدم المادي"(٢٨).

وقد شملت العلمانية جميع نواحي الحياة في أوربا فكانت هناك علمانية في الحكم، وعلمانية في الاقتصاد، وعلمانية في التعليم، وعلمانية في الاجتماع والأخلاق. وإليك بيان ذلك:-

## ١- العلمانية في الحكم والسياسة:

أقامت العلمانية الحكم في أوربا على نظريات ثلاث هي:-

(٢٨) عمر فروخ، الإسلام على مفترق الطرق، ص٤٧.

١- النظرية الخيالية: وتقوم هذه النظرية على أساس أن الدين ليس هو المنهج الذي تقوم عليه الحياة، ولا الأساس الذي تنبثق منه كل التصورات والقيم، بل إن الانسجام العقلي والمصلحة الدنيوية المجردة هما الدعامة التي بنت النظرية عليها مجتمعاتها اللادينية، وأوحت أنه من الممكن قيام حياة بهيجة متكاملة بلا دين، هذا وقد عرفت النظرية الخيالية قديماً من الفكر الإغريقي وبخاصة في جمهورية "أفلاطون" حيث كان الفلاسفة يهربون من الواقع السيئ إلى عالم الخيال ويبنون من الأوهام والتخمين مجتمعات مثالية أو مدنا فاضلة تتمتع بالوئام التام والإيثار المتناهي والمساواة الكاملة في جو ملائكي حالم.

٢- نظرية العقد الاجتماعي: وقد أوحت هذه النظرية إلى الناس بفكرة جديدة عن الوطنية الاجتماعية، إذ أن العقد إنما يكون بين الإنسان والمجتمع الذي يعيش فيه، وتتفق مصالحه مع مصالح الفرد ورغباته، لا مع مجتمع آخر بعيد مهما كانت قوة الصلة الدينية فهي تهدف إلى نزع ولاء الفرد من الكنيسة وإعطائه للدولة، وإلى قطع الروابط الدينية ليحل محلها الروابط الوطنية، كما أنها جعلت القيمة العليا للمصلحة المادية المعنوية.

٣- نظرية الحق الإلهي: تقوم هذه النظرية على أن الملوك من سلالة عريقة خاصة أسمى من العنصر البشري المشترك وأنهم من نسل الآلهة "كما فعلت أباطرة الروم".

وظلت أوربا ترزح تحت عبادة آلهة من البشر – الإمبراطور و البابا – الأول يدعي أن له الحق في حكم الناس وفق مشيئته ويخضع لهواه، والثاني يبارك خطواته ويلزم الشعب بطاعته؛ لأن ذلك يأمر به الله وتمليه عليه السماء(٢٩).

ولقد كان كل من "هوبز" و"ميكافيللي" من أشد المدافعين عن نظرية الحق الإلهي واستبدادية الحكام. وميكافيلي من أعلام الساسة العلمانية في أوربا لأنه يقوم على رأس مذهب معروف هو مذهب "الغاية تبرر الوسيلة" وبالتالي فلا قيمة لأي شيء، ولا لأي قيد أو ارتباط أو أخلاق أو ضمير كل هذه عملات غير قابلة للصرف في عرف السياسة العلمانية سياسة الغاية تبرر الوسيلة، كما أن الحكام الذين مارسوا الطغيان مستترون بهذه الدعوى "الحق الإلهي" هم أبعد ما يكون عن تنفيذ القانون الإلهي وأن نظرية الحق الإلهي ليست على حق فيما تضفيه على حكامها من القداسة المصطنعة والعمل حسب تفويض الله وما تمليه السماء كما يزعمون.

## ٢- علمانية الاقتصاد:

إن الميكافيللية التي وجهت السياسة ونظمها في ظل العلمانية قد تجاوزت السياسة إلى الاقتصاد، لقد صارت دينا جديداً أحل محل الدين

(٢٩) سفر عبد الرحمن الحوالي، العلمانية، ص٢١٢ – ٢١٨ (باختصار وتصرف).

المخلوع في كل شيء تدخل فيه الوسائل والغايات.

إن النظرية الأساسية في كتاب "ثروة الأمم" نظرية ذات نزعة ميكافيلية وهى أن العامل الأول في نشاط الإنسان هو المصلحة الشخصية، وأن العمل على جمع الثروة ما هو إلا مظهر من مظاهرها، وأن الأنانية والمصلحة الشخصية تكمن وراء كل نشاط للجنس البشرى"(٣٠).

تلك نظرية مادية بحتة أتت على ما في الإنسان من نزعات خيرة تبرر الوسيلة. لقد كانت مسألة الاقتصاد من أهم المسائل التي تصدت لها العلمانية في القرن الثامن عشر، إذ كانت الكنيسة تقر النظام الإقطاعي السائد، وتقر الاضطهاد الذي كان يتعرض له أرقاء الأرض رغم تنافيه مع تعاليم الإنجيل لكنها في مسألة الربا كانت أكثر تشدداً، وكانت العقيدة المسيحية في الربا من أكبر العقبات في نمو النظام المصرفي وتقدمه، فألغت الدول الغربية ما وضعته من قوانين لتحريم الربا وأصبح تحريم الكنيسة للربا كلاماً مهملاً يتفق الناس جميعاً على إغفاله وعدم العمل به"(٣١).

وأقامت اقتصاداً عالميا يجعل الربا والاحتكار اللذين حرمتهما الشرائع قاطبة عموده الفقري مما ينذر بوقوع كارثة محققة على البشرية، لقد رفع العلمانيون شعار السياسة الاقتصادية لدى الغرب هو تحقيق أكبر ربح بأي

(٣٠) محمد قطب، مذاهب فكرية معاصرة، ص٤٧٣.
(٣١) سفر الحوالي، العلمانية، ص٢٦١.

وسيلة، ومنذ ذلك الحين جرد الاقتصاد تجريداً كاملاً من أية صبغة دينيـــة أو أخلاقية واختفت من موازين الاقتصاد ومباحثه كل كلمة من كلمات الحق والعدل المجردين فضلا عن الحلال والحرام، وأقنعوا أنفسهم تماما بأن الدين – إن كان– شيء شخصي لا علاقة له بشئون الحياة.

## ٣- علمانية العلم:

لقد اندفع تيار أهوج في كل القنوات الفكرية والعلمية في أوروبا يريد أن يجرف كل شيء اسمه دين أو له علاقة بهذا الاسم، ويمحو كل أثر مـــن آثاره، وكانت غاية من يسمون أحرار الفكر هو الدفع بهذا التيار إلى الأمام ما أمكن وبسرعة أقصى، لا لأن ذلك ما يمليه عليه المنهج العلمـــي وحريـــة الفكر، بل لأنه نتيجة رد الفعل المتهور ضد الكنيسة، وكان شعار العلمانيين في ذلك ما من مسألة ناقض العلم فيها الدين إلا وكان الصواب بجانب العلم والخطأ حليف الدين. العلم وحده الحق والحكم وهو مصدر النور كما هـــو منبع الرفاهية أما الدين فجمود ورجعية وخرافات وأساطير.

الدين شيء والعلم شيء آخر لا علاقة بينهما إلا التضاد، كلما حدث تقدم في العلم والمعرفة استخدم هذا التقدم للقضاء على الدين ذاتـــه، ودك أسسه باسم العلم، ونجح المغرضون والهدامون من الموتورين بطغيان الكنيسة في اختلاق خصام بين الدين والعلم وزحزحت حقائق وقيم الدين من ميدان

العلم والبحث، وظل العلم يمارس عمله متخبطاً في دائرة مغلقة لا علاقة لها بدين أو خلق ولا تهدف إلى غاية أسمى ومثل أعلى"[٣٢].

بل وصلت بهم الحماقة إلى حد أن اعتبروا مجرد ذكر اسم الله في البحث خروجاً من الروح العلمية وإفساداً لمنهج البحث بل إنهم يعدونه مبرراً لطرح النتائج العلمية كلها، ولو كانت صحيحة كلها واعتبروا أن اعتقاد العالم بوجود الله الخالق كفيل بإخراجه من دائرة العلماء وطرح الثقة بأبحاثه كلها مهما كانت صحيحة بمقياس العلم الذي يؤمنون به إلهاً من دون الله"[٣٣].

وكان من نتائج فصل العلم عن الدين "فُشُو الإلحاد بشكل لم يعرف التاريخ له مثيلا، وقوضت دعائم الدين واجتثت تصوراته وإيحاءاته الأخلاقية باسم العلم والمعرفة وطبقت أوروبا عمليا النصيحة التي أسداها هيجل وهى أن "التعليم أعظم عمل يقوم به المجتمع الذي يرغب في التخلص من الأديان".

وكان من الآثار السيئة –كذلك– لفصل العلم عن الدين ذلك التخبط المزعج الذي وقع فيه من يسمون علماء، خصوصاً فيما يتعلق بالشئون التي لا يستطيع الإدراك البشرى منفرداً أن يسبر أغوارها فمثلاً الاضطراب حول الذات الإلهية "أوسع من أن يحصر فإضافة إلى الذين ينكرون وجود الله –

(٣٢) سفر الحوالي، العلمانية، ص٣٣١، ٣٤٨ (بتصرف).
(٣٣) مذاهب فكرية معاصرة، ص٤٨١.

تبارك وتعالى- نجد من يقترح أن يكون الأثير العام هو الإله الذي لا يمكن أن يوفق بين العلم وبين عقائد رجال الدين"[٣٤]، ومن يرى أن الله تعالى هو "المركز الذي تنبع منه العوالم كما تنبع الصواريخ من باقة عظيمة مع مراعاة أن هذا المركز ليس شيئاً بل هو انبثاق مستمر أو نبع متواصل "[٣٥].

كما بعثت الفلسفات الصوفية القديمة لاسيما وحدة الوجود وسئل بعضهم فزعم أن الإنسان هو الإله على الحقيقة"[٣٦]، بينما اكتفى آخرون بترديد لفظ الطبيعة، وغلا فريق منهم في الشك حتى زعم أن الكون كله وهم لا حقيقة له ولا وجود لشيء خارج الذهن، وليس هناك حقيقة موضوعية على الإطلاق "[٣٧]، ووصل الجنون ببعضهم إلى حد أن ادعى أنه هو الله -تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً - "[٣٨]. أما الحيارى التائهون فمجموع لا تحصى.

بقى أن نشير إلى نتيجة أخرى - من نتائج فصل العلم عن الدين - وهى مشكلة سوء استخدام العلم المتمثل في الدمار الذي يهدد البشرية صباح مساء نتيجة الكشوف في ميدان الذرة والحرب عموما.

(٣٤) هو آرنست هيجل، ويلم جيمس، العلم والدين، ٨٩.
(٣٥) برجسون، سلسلة تراث الإنسانية، ٢/١٤٨.
(٣٦) منهم نيتشه ثم جوليان هكسلى.
(٣٧) من هؤلاء جيمس جسيتز، انظر: الله يتجلى في عصر العلم، الفصل الأول.
(٣٨) منهم نجنسكى، انظر: كولن ولسن، اللامنتهى، ص٤٩.

يقول أحد الباحثين في كتاب " العلم أسراره وخفاياه "

"إن العلم يواجه ورطة شديدة فالعلم هو البحث عن الحقيقة، وأساس العلم العقيدة الراسخة بأن الحقيقة تستحق الاكتشاف، وأن البحث عنها إنما ينبع من أشرف صفة من صفات الروح الإنسانية، ومع ذلك فهذا البحث عن الحقيقة هو نفسه الذي جعل حضارتنا تحولت إلى مأساة، وهى أننا كلما نجحنا في توسيع آفاق معرفتنا كان ذلك نذيراً بقرب الخطر الذي يهدد بالقضاء المبرم على الحياة البشرية على هذا الكوكب فهذا السعي وراء الحقيقة أمدنا في آخر الأمر بالأدوات التي تمكننا من هدم مجتمعنا بأيدينا وبالقضاء على كل الآمال المشرقة لجنسنا ما عسانا فاعلين في هذا الموقف ؟ هل نكبح جماح العلم أم نتمسك بطلب الحقيقة رغم ما في ذلك من تمزيق وتبديد لمجتمعنا "[٣٩].

هذا قليل من كثير من النتائج السيئة التي جلبها الصراع المشئوم بين دين أوروبا وعلمها، ودفع إليها التعصب المقيت من قبل دعاة اللادينية في مجال مفروض فيه أن يكون أعظم طريق إلى الله وأقوى دافع إلى خشيته.

وقد كان لهذا الصراع – بين العلم والدين في أوروبا – أسبابه وظروفه الخاصة في مواجهة الكنيسة التي وقفت حجر عثرة أمام العلم باسم الدين.

(٣٩) سفر الحوالي، العلمانية، ص٤٩ – ٥٩ (باختصار).

## ٤- علمانية الأخلاق:

ربما لم يكن هناك مجال تأثر بالعلمانية بقدر ما تأثرت الأخلاق ذلك أن الدين هو المنبع الطبيعي للأخلاق، فإذا جف هذا المنبع أو جُفف بسبب من الأسباب فلابد أن يتبعه حتما انهيار تدريجي في الأخلاق ينتهي إلى اللاأخلاق.

لقد زحفت العلمانية على الحياة الأوروبية فأقصت الدين من الحياة بقدر ما تمكنت هي من الحياة ومع إقصاء الدين أقصيت الأخلاق لأنها أصلاً مستمدة من الدين.

وأول مجال أزيحت الأخلاق عنه هو مجال السياسة منذ قال ميكافيللي "إن الغاية تبرر الوسيلة " ومعناها بصريح العبارة إسقاط الأخلاق من مجال السياسة وممارسة السياسة بلا أخلاق. ثم أزيحت الأخلاق من مجال الاقتصاد منذ الثورة الصناعية بتحليل الربا وتحليل الغش والخداع والكذب وسرقة أجر الأجير، وشغل الناس بتوافه الأشياء من أجل الربح، وتحليل شن الحروب والاستعمار من أجل إيجاد أسواق لتصريف البضائع إلى آخر ما قامت به الرأسمالية من حيل غير شريفة للاستزادة من المال على حساب البشرية.

ثم أزيحت الأخلاق من مجال العلم، و لم يعد هدف العلم البحث عن الحقيقة المجردة – لله– إنما صارت مصاحبة للمصالح والأهواء والشهوات في إبعاد اسم الله عمداً من البحث العلمي مع وضع بديل مزيف هو الطبيعة لا

لأن هذه حقيقة، ولكن لأنها تخدم هدفا معينا في معركة معينة بين العلماء وبين الكنيسة، ومن نشر أبحاث كاذبة بقصد نشر الإلحاد ومن استخدام ثمار العلم لإفساد الأخلاق وغير ذلك مما كان مستحيلا أن يحدث في ظل سيطرة الدين على مشاعر الناس، ومن ثم التزامهم بأخلاقيات الدين ولكنه يحدث بسهولة في ظل العلمانية التي تفاخر بإقصاء الدين عن كل مجالات الحياة.

ثم أزيحت الأخلاق عن مجال الفكر فلم يعد يحس المفكر أنه ملتزم بأمانة معينة هي في أصلها الأمانة المؤداة إلى الله، فحفلت وسائل الإعلام جميعاً من أول الكتاب إلى التليفزيون بكل صنوف التضليل والكذب والخداع وإفساد العقيدة وإفساد الأخلاق.

ثم أزيحت من مجال العلاقات الجنسية بصفة خاصة وهى أدق مجالات الأخلاق، فقيل أن الجنس مسألة (بيولوجية) لا علاقة لها بالأخلاق، أي مسألة ذكر وأنثى يجرى بينهما ما يجري بين الذكر والأنثى بلا قيود ولا أخلاق وكانت الحمأة الدنسة التي تردت فيها البشرية وأخيراً أفرغت الأخلاق ذاتها من مضمونها حين قيل: إنه ليس لها وجود ذاتي، وإنما هي انعكاس للأوضاع المادية والاقتصادية أو أنها من صنع العقل الجمعي وأنها تتغير على الدوام ولا تثبت على حال وسقط الإنسان بسقوط الأخلاق"(٤٠).

تلك مقتطفات سريعة عن واقع العلمانية في الغرب وقد ألمحنا من

(٤٠) مذاهب فكرية معاصرة، ص٤٨٩.

خلالها أن الغرب أضحى علمانياً في كل شيء في اقتصاده وعلمه وأخلاقه، وقد نشأت هذه العلمانية في العصر الحديث في الغرب كما عرفنا من قبل كدعوة لفصل الكنيسة عن الدولة، ورفع السيطرة الكنيسة عن جوانب التفكير والتعليم والثقافة وتشكيل المجتمع وسياسة الدولة ورغبة رجال الفكر في كسب الحرية لأنفسهم ولرجال العلم التجريبي الناشئ، وكانت هناك مبررات أخرى هامة كعجز الكنيسة عن إيجاد برنامج أو فكر أو هداية لأي جانب من جوانب المجتمع الجديد الآخذ في التعقيد وظهور فئات جديدة وقوية لا تؤمن بالمسيحية كدين وتشكك في عقيدتها وكتبها.

## ثانياً: من مظاهر العلمانية في الحياة الإسلامية:

من المسلم به أن العلمانية لم تكن وليدة المجتمعات الإسلامية بل إن المجتمعات الإسلامية لم تكن تعرف مثل هذا التيار الوافد لولا الحملة الشرسة التي قام بها أعداء الإسلام بغية فصل الدين عن شئون الحياة، ومنذ ذلك الحين والعلمانية لها صولتها وجولتها في تلك المجتمعات. نلمح ذلك من خلال عرض لبعض النماذج التي تأثرت بالعلمانية وأصبح أثرها واضحا ملموساً:-

### ١- في مجال التعليم:

كان ومازال هدف العلمانيين في العالم الإسلامي تغيير العقلية الإسلامية، والقضاء على كل مقوماتها الأساسية، وبصدد ذلك اجتهدوا في إقصاء الدين الإسلامي عن المناهج الدراسية، مع وصمه بالجمود والرجعية،

مع إبعاد العناصر التي تمثل الثقافة الإسلامية عن مراكز التوجيه بغية إنشاء عقلية عامة تحتقر كل مقومات الحياة الإسلامية مع الإعجاب والانبهار بالمجتمع الأوروبي، وبذلك يتحول ميزان النفسية الإسلامية، والعقلية العربية من المقاومة والجهاد إلى التقبل والولاء والتبعية.

يقول الدكتور يوسف القرضاوي: " ولقد أصيب المجتمع الإسلامي بهذا "الفصام المنكر" الوافد من الغرب المسيحي، وانقسم النظام التعليمي في بلد كمصر وفي معظم البلاد الإسلامية إلى نوعين من التعليم، تعليم ديني يمثله الأزهر الشريف وما يتبعه من المعاهد، وتعليم مدني أو علماني لا يلتزم بالثقافة الإسلامية بل ولا يهتم بها، ويمثله الجامعات ومدارس الدولة بصفة عامة.

"إن هذه المؤامرة حاك الاستعمار خيوطها منذ أن وضع يده على العالم الإسلامي وهو يستهدف عزل الأزهر والمعاهد الدينية في العالم الإسلامي من الحياة وإخضاع برامجه للمنهج العلماني بحيث يصبح الدين تبعا للحياة بدلا من أن يقودها.

## وقد استهدف دعاة العلمانية من ذلك عدة أهداف:

أولاً: حصر التعليم الديني مادياً ومعنوياً، فأما الحصر والحصار المادي فقد كان يفتح التعليم اللاديني في مواجهته وتشجيعه وتم مع ذلك تضييق الموارد المادية على التعليم الديني وإغداقها على التعليم اللاديني وأما الحصر

والحصار المعنوي فهو ما لجأ إليه من تنفير وسخرية بطالب العلم الديني وبأستاذه وبالتفرقة بين أستاذ الدين وأساتذة المواد الأخرى في كل شيء.

ثانياً: تشجيع الابتعاث إلى الخارج إلى الدول غير الإسلامية حتى يزداد طالب التعليم العام جهالة بدينه وقيمه ومثله ويزيده تعلقا بقيم الغرب، وهو من ناحية أخرى يبدأ بتطبيعه بطباع غير إسلامية ثم يصير التطبع مع الزمن طبعا وينسلخ الطالب من حيث لا يشعر حتى من تقاليده.

ثالثاً: انتشار المدارس والمعاهد والكليات الأجنبية في البلاد الإسلامية لكي تحقق أهداف التبشير والتنصير.

رابعاً: تمييع المناهج الإسلامية باسم التطوير.

خامساً: نشر الاختلاط بين الجنسين في مراحل التعليم المختلفة تحت دعوى التقدم والتمدين، وكأن التمدن والتقدم ونشر الروح الجامعية لا يتم إلا بإشعال نار الغرائز وتأجيج سعار الشهوة في سن الشباب الملتهب.

وترتب على هذا الازدواج بالوضع الذي أشرنا إليه نتائج خطيرة فهي:-

أولاً: أدت إلى تمزيق المجتمع الإسلامي بين طائفة العلمانيين الواردين من الخارج أو المتخرجين في الداخل.

وهى ثانياً: أدت إلى إبعاد العلمانيين عن الإسلام.

وهى ثالثاً: جعلت الأمر إلى أيدي هؤلاء العلمانيين.

وهى رابعـــاً: أدت إلى الازدراء بـــشأن الـــدين والازدراء بطلابـــه ومعلميه"[٤١].

## ٢- في مجال الإعلام:

إذا كانت العلمانية في التعليم أقدم وأخطر فإنها في الإعلام أعم وأشمل فالتعليم يخاطب الآلاف بمناهجه، أما الإعلام فإنه يخاطب الملايين ببرامجه.

إننا نلاحظ أن نشاط الاتجاه العلماني يبدو كأوضح ما يكون في المواد الفنية التي تعرض على شاشات الإنترنت والفيديو والسينما والتلفاز والـــتي تتخذ طابع الإلحاح الشديد والتقليد الأعمى بما لها من تأثير كبير على أعداد غفيرة من الجماهير، فمع أن هذه الأعمال الفجة من الناحية الفنية تتنـــاول قضايا العلاقات الشخصية، مع مالها في الإسلام من مكانـــة كـــبيرة، إلا أن الأجهزة الإعلامية تعالجها من وجهة النظر الغربية اللادينية، حـــتى ليكـــاد المشاهد لهذه الأعمال لا يصدق أننا في بيئة إسلامية لهـــا رأيهـــا الواضـــح، ووجهة نظرها الخاصة والصريحة في مثل هذه الموضوعات.

ونلاحظ في الجانب الإعلامي الآخر المقروء والمسموع مدى التفرقـــة الواضحة بين البرامج والصفحات الدينية وغيرها مـــن الـــبرامج والقـــضايا

(٤١) د. علي جريشة وزميله، أساليب الغزو الفكري، ص٦٢ - ٧٠ (بتصرف).

الأخرى، حيث يظهر البرنامج والموضوع الديني في صورة جامدة متخلفة منفرة، في الوقت الذي يبرز الإعلام فيه في الجوانب الأخرى حسن التبويب وحيوية العرض والتقديم.

وللأسف فإننا نستطيع باطمئنان أن نقرر: "أن وسائل الإعلام المختلفة مسخرة اليوم لإشاعة الفاحشة والإغراء بالجريمة، والسعي للفساد في الأرض بما يترتب على ذلك من خلخلة للعقيدة، وتحطيم للأخلاق والقيم والمثل وهي أساس لبناء الإسلام فإذا انهدم الأساس فكيف يكون البناء؟"(٤٢).

## ٣- الجانب القانوني أو التشريع:

فالعلمانية كما نعلم تعنى لدى دعاتها أن يقوم التشريع القانوني والدستوري في المجتمع والدولة، على أساس غير ديني، ومن ثم فقد تسلل دعاة هذا الاتجاه وأعوانهم إلى مؤسسات القضاء والتشريع في المجتمعات الإسلامية، واجتهدوا في القضاء على سلطان الشريعة الإسلامية قضاء شبه نهائي في الأحوال المدنية والتجارية والجنائية، بعد أن قاموا بحملة تشهير واسعة النطاق أثاروا فيها الشبهات حول الإسلام فبثوا في روع المسلمين أن الشريعة الإسلامية هي السبب في تأخرهم، وأنها عائق في سبيل تقدمهم ونهوضهم وفي المقابل عرضوا لما أسموه تطور الشريعة بتطور العصر، وغير ذلك من المحاولات الباطلة التي عرفت في الشرائع الوضعية والتي تحتاج في كل

(٤٢) د. علي جريشة وزميله، أساليب الغزو الفكري، ص٧١.

عصر إلى تغير مع روح العصر وتحولاته.

وإنه لمن دواعي الأسف والألم أن تجد مثل هذه الدعوات الباطلة الهدامة صدى واستجابة من مؤسسات الحكم والسلطة في كثير من بلدان العالم الإسلامي.

يقول الداعية الإسلامي الشيخ/ محمد الغزالي رحمه الله "اتجه الغزو الثقافي إلى الشريعة الإسلامية ليخلع عن رأسها التاج ويعزلها عن مكان الصدارة، لقد كانت هذه الشريعة تحكم في الدماء والأموال والأعراض وتحرس الحقوق الخاصة والعامة وتقرر الحدود في العلاقات المحلية والعالمية...

وظل هذا الفقه يحكم المسلمين وغيرهم بين الأطلسي والهادي حكما راشدا كافيا مغنيا، حتى دخل الاستعمار الحديث فأخذ ينفس عن حقده على الإسلام بمكر وخبث، فألغيت شرائع الحدود والقصاص، وعطلت المقررات الإسلامية في شتى القضايا الحساسة وتركت إلى حين قوانين الأسرة، وها قد بدأت في بعض البلاد صيحات العملاء لتغيير أنصبة المواريث وتنصير بقية الصلات العائلية "[٤٣].

بدأً الاتجاه العلماني يأخذ مكانه في التشريع والقضاء واستثمارات نظام التقاضي على أصول ومبادئ أخرى قد تتعارض مع المبادئ الإسلامية الموجودة في المجتمع الإسلامي، فما لم يلغه الاستعمار من مبادئ الإسلام أو

(٤٣) ظلام من الغرب، ص١٥٩.

مظاهره ألغاه الحكم الوطني بعد الاستقلال ونجد ذلك في إعلان الدستور في أبريل عام ١٩٢٤ م وجعل المسلمين مثل غيرهم خاضعين لقانون مدني واحد ثم سن القوانين الجديدة ومنها:-

١- أخذ القانون المدني من القانون السويسري.

٢- أخذ القانون الجنائي من القانون الإيطالي.

٣- أخذ قانون المرافعات من سويسرا وإيطاليا.

٤- أخذ القانون التجاري من ألمانيا"(٤٤).

ومع معاهدة إلغاء الامتيازات الأجنبية عام ١٩٣٧ م اشترط المؤتمرون أن تستمد مصر تشريعها من التشريع الغربي بعيداً عن الشريعة الإسلامية ومع زوال المحاكم المختلطة صدر القانون المدني عام ١٩٤٨م ناصا في مادته الأولى على مصادر القانون جاعلاً في مقدمتها التشريع الوضعي ثم العرف الوضعي.

ووضع في الدرجة الثالثة مبادئ الشريعة الإسلامية والقانون الطبيعي فجعل مكان الشريعة "الدرجة الثالثة"، وجعل القانون الطبيعي مشاركاً لها وتبعتها في ذلك أكثر الدول العربية بعد استقلالها وصار القانون المدني المصري أساساً لكثير من القوانين في البلاد العربية ولما قضى على الازدواج في القضاء بإلغاء المحاكم الشرعية بالقانون رقم ٤٦٢ لسنة ١٩٥٥م أحيل

(٤٤) د. محمد البهي، الفكر الإسلامي مشكلات الأسرة، ص١٥.

اختصاصها للمحاكم الوطنية، وقد كان ينتظر إلغاء ازدواج التشريع بإلغاء التحاكم إلى الشريعة الإسلامية في مجال الأحوال الشخصية.

وهذا ما حاولت جهود يائسة الوصول إليه تحت مظلة شعارات مختلفة، وبإدعاء ضرورة التوحيد بين قوانين المسلمين وغير المسلمين !!

وإن لم تتم الخطوة الأخيرة بصورة نهائية فقد صار النيل من قوانين الأحوال الشخصية في الفترة الأخيرة خاصة منها ما يتعلق بالطلاق وتعدد الزوجات أمراً مباحاً.

وكان أقساها وأقصاها ما صدر عام ١٩٧٩م "القانون رقم ٤٤ لسنة ١٩٧٩م" والذي صدر في وقت وظروف تدل على الريبة إذ أصدره رئيس الدولة في غيبة مجلس الشعب بقرار خاص منه رغم أنه لم تكن هناك ضرورة ملحة لهذا الإصدار والمجلس يجتمع بعد الإصدار بفترة بسيطة "[٤٥].

وهكذا نلاحظ من جديد أن المجتمعات الإسلامية لم تزل تدور في فلك التبعية للغرب، بعد أن جعلت قوانينها صورة منقولة عن القوانين الغربية بغض النظر عن مخالفة الأخيرة لقيم وأعراف وتقاليد ومبادئ وتشريع الإسلام، الأمر الذي بات معه المجتمع المسلم يموج بكل صنوف الجرائم

(٤٥) الاتجاهات الفكرية المعاصرة، ص١١٤.

والسلبيات التي ثبت بالوقائع أن القوانين والتشريعات الوضعية لا تستطيع مقاومتها أو الحد منها ومع ذلك فالجميع يركن إلى الدعة ولا يحرك ساكنا تجاه تغيير هذه القوانين أو تعديلها بما هو أفضل وأشرف.

## المبحث الخامس
## مناقشة فكرة فصل الدين عن الدولة
## ورد شبهات العلمانيين

إن المتتبع لظهور هذه الفكرة الدخيلة في المجتمع الإسلامي يلاحظ أنها أثيرت على الساحة الفكرية منذ بداية القرن الرابع عشر الهجري – العشرين الميلادي مرتبطة بقضية هامة وهى " الجامعة الإسلامية " وذلك لأن الجامعة الإسلامية، في نظر الدعاة إليها من علماء الإسلام تقوم على أسس راسخة من أهمها "الخلافة" ولما كانت مصادر الخلافة مجتمعة في "حراسة الدين وسياسة الدنيا به". فهي أعظم مظهر إسلامي يدل على الارتباط الوثيق بين الدين والدولة في الإسلام من هنا اتجه الخبثاء من أذناب الاستعمار وأعوانه إلى محاولة صرف أذهان المسلمين عن هذا الفهم الصحيح، وبث فكرة العلمانية الدخيلة في الوسط الإسلامي فقد أنكر العلمانيون الخلافة الإسلامية وادعوا أن النبي ﷺ لم يكن رئيساً للدولة بل كان نبياً فقط وأن نظام الخلافة نظام سياسي محض بعيد كل البعد عن الدين والعبادة.

ومرجع كل هؤلاء يعود إلى أول من ابتدع هذا الفكر الشارد الشيخ

علي عبد الرازق"[٤٦] في كتابه " الإسلام وأصول الحكم – بحث في الخلافة والحكومة في الإسلام".

ويكاد يكون هذا الكتاب من أشهر الكتب وأخطرها التي ظهرت في العصر الحديث وكانت معاول هدم الشريعة الإسلامية وحقائقها القطعية، خاصة وأن مؤلفه واحد من العلماء المنتسبين إلي الأزهر الشريف. والكتاب في جملته دعوة صريحة لهدم الخلافة الإسلامية وضرورة الفصل بين الدين والدولة. فمن تصريحات الكتاب قول مؤلفه:

" الواقع المحسوس الذي يؤيده العقل ويشهد به التاريخ قديما وحديثاً أن شعائر الله تعالى ومظاهر دينه الكريم لا تتوقف على ذلك النوع من الحكومة الذي يسميه الفقهاء خلافة، ولا على أولئك الذين يلقبهم الناس خلفاء، والواقع أيضا أن صلاح المسلمين في دنياهم لا يتوقف على شيء من ذلك فليس بنا من حاجة إلى تلك الخلافة لأمور ديننا ولا لأمور دنيانا ولو شئنا لقلنا أكثر من ذلك.

---

(٤٦) هو أحد علماء الأزهر ولد في قرية أبو جرج بمحافظة المنيا صعيد مصر، ١٣٠٥هـ / ١٨٨٧م أتم حفظ القرآن منذ الصغر والتحق بالأزهر، وجمع بين دراسته بالأزهر والدراسة بالجامعة المصرية عام ١٩٠٨م وتخرج من الأزهر عام ١٩١٢م، وحصل على الشهادة العالمية ثم سافر إلى انجلترا على نفقة أسرته عازما على دراسة الاقتصاد بجامعة اكسفورد، وفي عام ١٩١٥ عين قاضيا شرعياً واستمر في هذا العمل حتى أصدر كتابه "الإسلام وأصول الحكم" عام ١٩٢٥م وكان قاضياً بمحكمة المنصورة الشرعية، فكان من تداعى المعركة السياسية التي أثارها هذا الكتاب أن فصل من عمله في ١٧ من سبتمبر عام ١٩٢٥م تنفيذاً للحكم التأديبي الذي أصدرته هيئة كبار العلماء، وانتقل إلى جوار ربه في ٢٣ من سبتمبر ١٩٦٦م الموافق ٧ من جمادى الثاني عام ١٣٨٦هـ، انظر: محمد عمارة، معركة الإسلام وأصول الحكم، ص٢٤.

فإنما كانت الخلافة و لم تزل نكبة على الإسلام والمسلمين وينبوع شر وفساد"(٤٧) ويُعَنْوِن لأحد أبواب الكتاب بما نصه " رسالة لا حكم ودين لا دولة "(٤٨) ويقرر شارحاً هذا الإجمال ومفصلاً إياه بالقول:

بأن محمداً رسول الله ﷺ ما كان إلا رسولا لدعوة دينية خالصة للدين لا تشوبها نزعة ملك ولا دعوة لدولة، وأنه لم يكن للنبي ﷺ ملك ولا حكومة، وأنه ﷺ لم يقم بتأسيس مملكة بالمعنى الذي يفهم سياسة من هذه الكلمة ومرادفاتها، ما كان إلا رسولا كإخوانه الخالين من الرسل، وما كان ملكا ولا مؤسس دولة ولا داعيا إلى ملك "(٤٩).

ثم يقول في مكان آخر: "والحق أن الدين الإسلامي بريء من تلك الخلافة التي يتعارفها المسلمون، وبريء من كل ما هيئوا حولها من رغبة ورهبة، من عزة وقوة، والخلافة ليست في شيء من الخطط الدينية كلها، ولا القضاء، ولا غيرها من وظائف الحكم ومراكز الدولة وإنما تلك كلها خطط سياسية صرفة لا شأن للدين بها "(٥٠).

ثم يقول في مكان آخر: " لم نجد فيما مر بنا من مباحث العلماء الذين زعموا أن إقامة الإمامة فرض من حاول الدليل على فريضته بآية من كتاب

(٤٧) على عبد الرازق، الإسلام وأصول الحكم، نقد وتعليق: د. ممدوح حفني، ص٨٣.
(٤٨) المصدر السابق، ص١٣٥.
(٤٩) المصدر السابق، ص١٣٦.
(٥٠) المصدر السابق، ص١٣٦.

الله الكريم، ولعمري لو كان في الكتاب دليل واحد لما تردد العلماء في التنويه والإشادة به.

ولو كان في الكتاب الكريم ما يشبه أن يكون دليلا على وجوب الإمامة لوجد من أنصار الخلافة المتكلفين -وإنهم لكثير- من حاول أن يتخذ من شبه الدليل دليلا، ولكن المنصفين من العلماء والمتكلفين منهم أعجزهم أن يجدوا في كتاب الله حجة لرأيهم فانصرفوا عنه إلى ما رأيت من دعوى الإجماع تارة ومن الالتجاء إلى أقيسة المنطق وأحكام العقل تارة أخرى"[٥١].

وينطلق الكتاب خلال أبوابه هادفاً هاتين الغايتين. وهما:

- هدم مسألة الخلافة فكراً و تطبيقاً.
- وإثبات أن الإسلام دين لا دولة " وهي العلمانية ".

ووجد بعض الحاقدين على الإسلام ضالتهم المنشودة في هذه الأفكار فأخذوها وعملوا على نشرها بين أفراد الأمة الإسلامية، وبالفعل تمكنوا من تربية بعض العقول على هذه الأفكار الضالة.

ومن ثمرات هذه العقول خرج لنا أمثال طه حسين وفؤاد زكريا وفرج فودة وسعيد العشماوي ونصر أبو زيد ومحمد أحمد خلف الله. حتى إن الأخير قال: "إن القرآن الكريم لم يجعل النبي العربي محمد بن عبد الله -عليه الصلاة والسلام - ملكاً أو رئيس دولة، وظل ينعته بالنبي والرسول... وليس

(٥١) المصدر السابق، ص٢٣٠.

من حقنا بأي حال من الأحوال أن نلتزم بغير ما جاء به القرآن الكريم، ونستبدله بغيره، لم يكن نبي الإسلام في أي وقت من الأوقات ملكاً أو رئيس دولة، وإنما ظل النبي الرسول"[٥٢].

والهدف المنشود من هذه الأفكار وغيرها من الأفكار المضللة هو ضرب الإسلام أولا لأنه الصخرة العاتية التي إذا تحقق النيل منها فقد تفسح الطريق أمام القوى المعادية للسيطرة العالمية، ولهدم قوة الدين الحق الذي قامت عليه السماوات والأرض والذي هو " روح الإنسانية " وملاذها وعلاج أمراضها وأسقامها، والضوء الكاشف الذي يقدم لها أسلوب الحياة وطريق النجاة. هذا ومن أهم الجهود العلمية البارزة التي قام بها علماء الأزهر في نقض وهدم كتاب الإسلام وأصول الحكم:

١- كتاب "حقيقة الإسلام وأصول الحكم" لفضيلة الشيخ محمد بخيت المطيعي.

٢- نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم - لفضيلة الشيخ محمد الخضر حسين.

٣- كتاب "في الرد على كتاب الشيخ علي عبد الرازق - الإسلام وأصول الحكم" لفضيلة الشيخ يوسف الدجوي.

(٥٢) محمد أحمد خلف الله، النص والاجتهاد والحكم في الإسلام، مجلة العربي الكويتية، عدد ٣٠٧، رمضان ١٤٠٤هـ/ يونيو ١٩٨٤م، ص٤٣.

٤- الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي "فصل الإسلام دين لا دولة" للدكتور محمد البهي.

٥- الإسلام والخلافة في العصر الحديث نقد كتاب "الإسلام وأصول الحكم" للدكتور محمد ضياء الدين الريس.

٦- العلمانية ونهضتنا الحديثة للدكتور محمد عمارة.

٧- سقوط العلمانية للأستاذ أنور الجندي.

والذي أريد أن أشير إليه هو أن الشيخ علي عبد الرازق لا ينكر وجوب حكومة في الأمة الإسلامية، كما يقرر أيضا أن الأمة الإسلامية تجمعت لها كل عناصر الدولة، وأن هذه الدولة الإسلامية قد وُجدت فعلاً وخضعت لحكومات عديدة بعضها صالح كحكومات الخلفاء الراشدين وبعضها فاسد – في نظره – كالحكومات التي جاءت من بعدهم.

ولكن علماء المسلمين ومفكريهم وقادتهم في كل هذه العصور كانوا يجهلون أن هذا الحكم الإسلامي لا يجب عليهم حتى جاء الخلفاء وأضلوا بلاد المسلمين ومزقوها، حيث اكتشف هو وحده من بين جميع المسلمين أن ما أسسه المسلمون من دول عبر تاريخهم الطويل لم يكن له أساس في الشريعة فعليهم أن يستوردوا النظم الأوربية في الحكم، ولا يرتبطوا بأي حكم مرتبط بالإسلام.

فقد توصل هو إلى أن الإسلام يجيز للمسلمين أن يقيموا أي نوع من

الحكم حتى ولو كان شيوعياً بلشفياً أو استبدادياً عسكرياً بشرط واحد هو ألا يكون حكماً إسلاميا. فهو يقول:

يمكن حينئذ أن يقال بحق أن المسلمين إذا اعتبرناهم جماعة منفصلين وحدهم، كانوا كغيرهم من أمم العالم كله محتاجين إلى حكومة تضبط أمورهم وترعى شئونهم.

إن يكن الفقهاء يريدون بالإمامة والخلافة ذلك الذي يريده علماء السياسة بالحكومة كان صحيحا ما يقولون من أن إقامة الشعائر الدينية، وصلاح الرعية يتوقفان على الخلافة بمعنى الحكومة بأي صورة كانت الحكومة، ومن أي نوع مطلقة أو مقيدة، فردية أو جمهورية، استبدادية أو دستورية أو شورية، ديموقراطية أو اشتراكية أو بلشفية. أما إن أرادوا بالخلافة ذلك النوع من الحكم الذي يعرفون فدليلهم أقصر من دعواهم وحجتهم غير داحضة"[٥٣]. ومعنى ذلك في نظره أن الإسلام لا يمنع المسلمين من إقامة أي نوع من أنواع الحكم ما عدا إقامة دولة على مبادئ الإسلام.

ومع أن العلماء قد استفاضوا في ذكر أدلة وجوب الخلافة من القرآن والسنة والإجماع إلا أنه يزعم أنه لم يجد فيما مر به من مباحث العلماء الذين زعموا أن إقامة الإمام فرض أن يقيم الدليل على فرضيته بآية من كتاب الله.

ويرد عليه الشيخ محمد بخيت المطيعي فيقول: [إن ما قاله بهتان وتضليل

(٥٣) الإسلام وأصول الحكم، ص٣٣.

لا يليق بعالم يريد الحق إذا كان يعتقد أن ما يقوله حق خصوصاً أن ما يخالفه قد انعقد الإجماع عليه وأنه أخطأ لأنه كان يجب أن يبين حججهم حجة حجة، وأدلتهم دليلا دليلا، وينقض كل دليل وحجة، ثم يثبت ما ادعاه بالدليل البريء، عن النقض والاعتراض وهو لم يفعل ذلك في كتابه، بل جرى فيه على إنكار ما علم من الدين بالضرورة، ولم يدع رأياً إيجابياً، بل سلك مسلك التشكيك، فدل ذلك على سوء قصده وعدم حسن نيته]"(٥٤).

أما دعوى فصل الدين عن الدولة وأن الإسلام قاصر على المسائل الروحية فقط، وأنه لا علاقة له بسير وتسيير الحياة اليومية لجماعة المؤمنين فهو ادعاء لم يقل به أحد من قبل، ولم يدر في خلد أحد من فقهاء المسلمين قبل الشيخ علي عبد الرازق.

وذلك لأن الإسلام دين شامل للدين والدنيا معاً فالدعوة لعلمنة الإسلام وإبعاده عن الدولة وشئون العمران، هو قطع لإحدى ساقيه، وتعطيل لإحدى رئتيه وكفران ببعض آيات كتابه، ينتقص من كمال واكتمال الإيمان بهذا الإسلام " وأنه إذا كانت العلمانية تغليباً للسلطة الدنيوية وفصلها عن السلطة الدينية المسيحية، فليس في الإسلام شيء يسمى بالسلطة الدينية فالدولة في الإسلام دولة بشرية لا مكان للعلمانية فيها، حيث إنه ليس هناك سلطتان يجب الفصل بينهما، وأن الإسلام بلا سياسة هو مجرد طقوس كأي

(٥٤) محمد بخيت المطيعي، حقيقة الإسلام وأصول الحكم، ص٢٦.

طقوس يجريها المجوس من أصحاب الديانات الأخرى، حتى إنه في هذا العصر بالذات عصر السياسة أصبحت نفس الأديان الأخرى تمارس السياسة كأنشط ما تكون، فالبابا والكنيسة والفاتيكان منشغلون بترع السلاح النووي والمعاهدات والحرب والسلام والمواقف الدولية العامة،وفي عصرنا الحالي قامت دولة إسرائيل دولة دينية ومتعصبة لدينها، وتحمل اسم أحد أنبيائها "(٥٥).

فكيف تقوم الأمم غير الإسلامية والتي شريعتها روحية محضة بالهيمنة على كل نواحي الحياة من سياسة واقتصاد واجتماع وغير ذلك ؟

ثم نحن أصحاب الدين الخاتم الذي جاء مهيمنا على كل الأديان نتقاعس ونحاول حبس الدين في المساجد وإبعاده عن شئون الحياة!!

على أن أبلغ رد على القائلين بعلمانية الإسلام وأنه "دين " وليس روحية محضة، وليس دولة وسياسة، إن أبلغ رد على هؤلاء – كما يقول الدكتور/ محمد عمارة هو [الإشارة إلى أبرز معالم الدولة التي أسسها الرسول وصحبه، وهي المعالم التي تواترت أخبارها في أمهات مصادر الحديث والتاريخ].

فقبل شهور من هجرة الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة تم عقد تأسيس

(٥٥) فهمي الشناوي، المؤامرة على إسقاط الخلافة، في: كتاب المختار الإسلامي، ص٥.

هذه الدولة بين الرسول وبين قادة الأوس والخزرج وممثليهم الذين التقوا بـه في موسم الحج من ذلك العام فكانت " بيعة العقبة " هذه عقـداً سياسـياً وعسكرياً واجتماعياً –حقيقياً لا مفترضاً– لتأسيس الدولة الإسلامية العربية الأولى في التاريخ.

قد نصت وشملت هذه البيعة –إلى جانب الإيمان بالدين– بنود تأسيس دولة المدينة، ففيها تم الاتفاق على: هجرة الرسـول وصـحبه إلى المدينـة مكونين مع أهلها أمة جديدة لها سلطانها الموحد والجديد، وعلى أن يحمـوا قائد هذا الكيان الجديد – الرسول ﷺ ويمنعون عنه مما يمنعون منه أنفـسهم ونساءهم وأبناءهم، وعلى أن يحاربوا معه الأسود والأحمر، أي كل من يعاديه و يعتدي عليه في موطنه الجديد ولقد عاهد الرسول هذا النفر مـن الأوس والخزرج، والذين مثلوا الجمعية التأسيسية للدولة الإسلامية العربيـة الأولى، عاهدهم على أن يكون انتماؤه إلى هذا الكيان الجديد انتماء مصير مؤبـد، فجواباً على سؤالهم له: "يا رسول الله: إن بيننا وبين الرجال – يهود يثرب – حبالاً، وإنَّا قاطعوها فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك، ثم أظهـرك الله، أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟! "

جواباً على هذا التساؤل قال ﷺ وهو يبتسم: "بل الدم الدم، والهـدم الهدم" أي مترلي في منازلكم، وقبري في مقابركم ومن طلب دمكـم فقـد طلب دمي! أنا منكم، وأنتم مني، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم ". ولقد طلب النبي من هذه الجمعية التأسيسية أن يختاروا منهم القيـادة الـتي

كانت بمثابة وزراء الرسول ومستشاري حكومته بين الأنصار فقال: أخرجوا إلي منكم اثني عشر يكونون على قومهم بما فيهم، فاختاروا تسعة من الخزرج، وثلاثة من الأوس.

فلما هاجر النبي – ﷺ – والمؤمنون من أهل مكة إلى المدينة وجد بها إلى جانب من آمن بالإسلام من الأوس والخزرج ( الأنصار ) قطاعات من قبائل المدينة العربية قد تدينت باليهودية، فاتفق وممثلي هذه القطاعات والجماعات التي لم تدخل بعد في " الدين الجديد " على أن يدخلوا في الدولة الجديدة كجزء من رعيتها السياسية، مع احتفاظهم بحرية الاعتقاد الديني، فتكونت الرعية السياسية للدولة الوليدة، التي قاد الرسول حكومتها، من المؤمنين بالإسلام – مهاجرين وأنصار – ومن العرب الذين بقوا على يهوديتهم، ولهذه الدولة وضع الرسول دستوراً بلغت " مواده " نحواً من الخمسين مادة، ينظم كل شئون الدولة في السلم والحرب وفي التعاون الأدبي والإنفاق المادي، وفيما هو خاص بكل قبيلة، وما هو عام في الرعية السياسية الجديدة ... وفي الموقف من الخارجين على هذا الدستور ... وفي حرمة الوطن الجديد وحدوده ... وفي علاقات هذه الرعية الجديدة بمشركي قريش، أعداء هذه الدولة الوليدة ... وفي المرجع عند الاختلاف على شأن من شئون هذه الرعية ودولتها..إلخ.

ولقد سمى المؤرخون هذا "الدستور" مرة "بالصحيفة" ومرة

بـــ"الكتاب" لأنه قد تحدث في مواده عن هذه الرعية السياسية لهذه الدولـــة الجديدة حيناً باسم "أهل هذه الصحيفة" وحيناً باسم "أهل هذا الكتاب" ففي هذا الواقع الجديد وجدنا "أمة مؤمنة" تتألف من المهاجرين والأنصار الـــذين أقام عقد "المؤاخاة" بينهم رباطا وثيقا في "الحق" وفي "ســـبل العـــيش" ... ووجدنا مع المهاجرين والأنصار هذه الجماعة العربية المتهودة التي دخلت مع المؤمنين في إطار "الرعية السياسية" أي الأمة السياسية – والقوميـــة للدولـــة الجديدة ... ووجدنا هذا الدستور – الذي هو غير القرآن– دستور الجماعة المؤمنة ووجدنا هذا الدستور السياسي يتحدث عن أبرز جمـــاعتين تتكـــون منهما هذه الأمة السياسية الجديدة، فيقول عن المهاجرين والأنصار –أمـــة الدين– إنهم "أمة واحدة من دون الناس" ثم بعد أن عدّد قبائلـــهم – يعـــدد قبائل العرب المتهودة، ليخلص لتقرير ولادة هذا الكيان الـــسياسي والأمـــة السياسية فيقول: "وأن يهود بني عوف وبني النجار وبني الحارث ... الخ الخ أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ...وأن بينهم النصر علـــى من حارب أهل هذه الصحيفة، والبر دون الإثم". ثم يقرر هيمنـــة الإســـلام كدين، وقيادة محمد ﷺ في هذا الكيان السياسي الجديد والدولة الوليـــدة، فينص في إحدى مواده على: "وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده، فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله".

فهي إذا دولة سبق قيامها "عقد تأسيس" وقام لها "دستور" لا زالـــت مواده المحكمة الصياغة تجتذب إعجاب أرباب هذا الفـــن مـــن الفقهـــاء

الدستوريين؟!

فنحن إذا أمام دولة كاملة الأركان، تامة المعالم، قياسا على العصر والواقع الذي قامت فيه ونهضت لضبط شئونه وتلبية احتياجات الرعية:

أ – فعلى رأس هذه الدولة كان القائد والأمير وولى الأمر والإمام: محمد بن عبدالله ﷺ وكان له وزراء ومشيرون، اشتهر منهم: هيئة العشرة –المهاجرون الأولون– ونقباء الأنصار الإثنا عشر، وكان هناك من اختص بالحجابة، والسقاية، والكتابة، والترجمة، وحمل الخاتم، وإمارة الحج ..... الخ.

ب – وفي فقه الدين كانت هناك عمالات: تعليم القرآن، وتعليم الكتابة والقراءة، والإفتاء، وتعليم الفقه، وإمامة الصلاة، والأذان الخ.

ج – وفي العلاقات الخارجية والإعلام كان هناك: السفراء، والتراجمة، والشعراء، والخطباء...الخ.

د – وفي القطاع الحربي: كان هناك غير أمراء القتال وجنده، كتاب الجيش، وفارضو العطاء، والعرفاء: رؤساء الجند....الخ.

هـ– وعلى النواحي كان هناك ولاة وأمراء الأقاليم، وفيها كان

القضاة وعمال الجباية والخراج، والقائم على الحمى، وصاحب المساحة وعمال الزكاة والصدقات، والخارصون للثمار، كما كان فارضو المواريث، وفارضوا النفقات ..الخ.

و - كذلك كان هناك من يقوم بمهمة " المحتسب " وصاحب العسس ومتولي حراسة المدينة، والعين: الجاسوس، والسجان، والمنادي، ومقيم الحدود، ومتولي التطبيب والعلاج ..الخ.

ز - وعند الغزو كان هناك: أمراء الجهاد، والمستخلفون على المدينة ومن يستنفر الناس للقتال، وصاحب السلاح، وصاحب اللواء، وأمراء أقسام الجيش الخمسة، وحراس القائد، - عليه الصلاة والسلام - والقائمون على متاع السفر، ومن يُخَذِّلُون الأعداء، ومن يبشر بالنصر ..الخ.

وكثير من هذه الوظائف الإدارية كان لها أربابها الذين عينهم الرسول فيها ابتداءً، أو أقرهم على مهنهم وحرفهم، ومنهم من عزله عن وظيفته وعين فيها البديل.

فنحن أمام دولة اكتملت لها المعالم والمقومات نشأت كضرورة اقتضاها الدفاع عن حرية العقيدة الجديدة وحرية الدعوة والدعاة للدين الجديد، وكضرورة لإقامة شريعة الإسلام، وتنظيم المجتمع الذي قام بالمدينة بعد هجرة النبي ﷺ -.

ولقد كان المصطلح المعبر عن الإمارة والسياسة وشئون الدولة في ذلك التاريخ، هو مصطلح "الأمر" ومنه كان "الائتمار" و "الأمير"، ولتميز الأمر عن الوحي والدين الخالص كان الأمر شورى في شريعة الإسلام، وكانت الشورى فريضة إلهية وجبت على الرسول - ﷺ - ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾(٥٦) وصفة للمؤمنين بنص القرآن الكريم ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾(٥٧). وكما كان الرسول معصوما في البلاغ عن الله سبحانه، لا ينطق فيه عن الهوى، لأن بلاغه هذا وحي يوحى، فلقد كان في أمر السياسة، مجتهداً أو مستشيراً، فهو في البلاغ الديني بشر يوحى إليه، وفي سياسة الدولة: بشر يجتهد ويستشير، ومن هنا يأتى الْمَعْلَم الثاني من معالم دولة الإسلام، والذي به تتميز عن " دولة الكهانة " والدولة الدينية التي عرفتها الحضارات غير الإسلامية، تستبد بها فئة خاصة بزعم أنها مفوضة للحكم بالحق الإلهي."(٥٨)

فهل هناك -بعد هذا الذي قدمنا - مجال لزعم علماني يدعي أصحابه أن الإسلام دين لا دولة ورسالة روحية محضة لا علاقة لها بسياسة المجتمع، وأن رسوله ﷺ ما كان إلا رسولاً، كالذين سبقوه، لم يُقِم دولة، و لم يرأس حكومة، و لم يؤسس المجتمع الذي عاش فيه؟؟!

(٥٦) سورة آل عمران، الآية (١٥٩).
(٥٧) سورة الشورى، الآية (٣٨).
(٥٨) د. محمد عمارة، نهضتنا الحديثة بين العلمانية والإسلام، ص٤٧ - ٥٥ (بتصرف).

لا نظن أن هناك مجالاً لزعم الذين أجهضوا الحقيقة ليقرروا علمانية الإسلام!.

وأبرز الطعون التي وجهها العلمانيون المعاصرون تتمثل في الاحتجاج بالتاريخ الإسلامي عبر عصوره، وتتلخص هذه الطعون في النقاط التالية:

**زعمهم:**

- أن التجارب التاريخية لم تكن إلا سلسلة طويلة من الفشل، إذ كان الاستبداد هو القاعدة والظلم هو أساس العلاقة بين الحاكم والمحكوم.

**زعمهم:**

- أن الاستشهاد بعصر الراشدين على مكانة الخلافة وعظمتها في حد ذاته دليل على أن دعاة الخلافة لم يجدوا ما يستشهدون به طوال التاريخ التالي الذي ظل الحكم فيه يمارس باسم الشريعة."(٥٩)

**زعمهم:**

- أن دعاة الخلافة يجهلون التاريخ الإسلامي بعد الخلافة الراشدة ويصورونه على عكس الحقائق بأنه تاريخ ورع وتقى وصلاح، بينما هو في أغلبه تاريخ مجون واستبداد ولهو، وأنه يجب على

(٥٩) مقال للدكتور فؤاد زكريا، في: جريدة الأهرام المصرية، بتاريخ ١٩٨٥/٧/٢٩.

وسائل الإعلام أن تبرز تلك الصورة حتى يتراجع دعاة الخلافة عن دعوتهم."(٦٠)

**زعمهم:**

- بأن جعل الحاكمية في المجتمع للدين الإسلامي سيشق الصف الوطني في مجتمع به أقليات دينية غير إسلامية – من النصارى على وجه الخصوص – لأن تحكيم دين في أبناء دين آخر هو امتياز لأبناء الدين الحاكم على الآخرين."(٦١)

أما عن الإدعاء الأول وهو أن الحكم الإسلامي كله سيئ فأقول:

من اللافت للنظر أن العلمانيين لا يكادون يجدون مجالاً يكتبون عنه بحوثهم وقصصهم ورواياتهم إلا فترات الفتنة التي لا تتعدى بضع سنين هنا أو بضع سنين هناك.

إن المرء ليستغرب حقاً من موقف هؤلاء الكتاب، إذ لو أن هدفهم كان إبراز مواطن النزاع والصراع بين الحق والباطل، فقد كان أمامهم متسع لا يشتبه فيه الأمر، ولا يلتقون فيه بما يحرك مواجع المسلمين، ويحركهم للثأر، ويهدد وحدتهم المطلوبة.

أمامهم حروب الردة التي اشتعلت إثر انتقال الرسول ﷺ إلى الرفيق

(٦٠) د. فرج فودة، النذير ، ص٥٥ و ٥٦.
(٦١) د. محمد عمارة، الإسلام والسياسة، ص١٤٠.

الأعلى وحروب مدعي النبوة.

وأمامهم الحرب البابكية التي استمرت أكثر من عشرين عاما من عهد المأمون ( ٢٠١ هـ ) إلى عهد المعتصم ( ٢٢٣ هـ ) وكانت حرباً فارسية ضد الإسلام. أمامهم حروب المسلمين مع الدولة الرومانية التي لم تهدأ قط منذ ظهور الإسلام مرورا بالحروب الصليبية إلى العصر الحاضر.

في كل ذلك وفي كثير غيره مجالات لا تنتهي لمن يريد استنطاق التاريخ دروس الحق والخير والجمال والحرية ... ..الخ. لكن أولئكم يجدون أنفسهم مزنوقين في حوادث الفتنه بين الصحابة والتابعين لأغراض لا تخفي على أحد. إنها أغراض العلمانية التي تعلن استبعاد الدين، أو تعلن استنطاق التاريخ ذلك الاستبعاد."(٦٢)

ومع ذلك فلنسلم جدلا بأن هذا حق، ولكن هناك سؤالا نطرحه على هؤلاء وهو: هل كان العيب في الناس الذين طبقوا الإسلام ؟ أم أنه في الإسلام نفسه ونظامه وأحكامه ؟

فإذا كانت الإجابة بأن العيب كان في الناس فذلك أمر يحتاج منا إلى تصحيح الأخطاء التي وقعوا فيها، واختيار من يصلح لهذا الأمر، ومراعاة

(٦٢) د. يحيي هاشم حسن، حقيقة العلمانية بين الخرافة والتخريب، ص٣٥١، ٣٥٢ (بتصرف واختصار).

الأمانة في ذلك، مع عدم إغفال أن فعل الناس حاشا النبي – ﷺ – ليس حجة على الإسلام، فهم يصيبون ويخطئون.

وهذا ما أقره الخليفة الأول أبو بكر – رضي الله عنه – حيث قال: " وليت عليكم ولست بخيركم، إن رأيتم خيراً فأعينوني، وإن رأيتم شراً فقوموني أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإن عصيت الله فلا طاعة لي عليكم "(٦٣).

فإذا كان التاريخ الإسلامي به أخطاء فهذا ليس حجة، لأننا لا ندعو إلى التأسي بالحكومات التي أخطأت في أي عصر من العصور، إنما ندعو إلى السير على ضوء كتاب حفظه الله لنا ﴿ لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ "(٦٤) وبسنة المعصوم – ﷺ – التي وضع لنا النبي – ﷺ – فيها المصادر الرئيسية التي نأخذ منها ديننا فقال " تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدهما: كتاب الله وسنتي ولن يتفرقا حتى يردا على الحوض "(٦٥).

فهذا الأصلان اللذان ندعو الناس إلى السير على نهجهما متمثلين ذلك في عالم الواقع، حيث الدولة النموذجية التي أنشأها المعصوم – ﷺ – وطبق فيها الأحكام من ناحية الأصول العامة تطبيقا هو المثل الذي يحتذي به، ثم

(٦٣) ابن كثير، البداية والنهاية، ص٣/٣٤٠.
(٦٤) سورة فصلت، الآية (٤٢).
(٦٥) تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، صحيح الجامع الصغير، حديث رقم: ٢٩٣٧ ، ص١/٥٦٦.

الخلافة الراشدة التي سارت على منهاج النبوة، وأعطت النموذج الإسلامي للحكم الإسلامي، وكيفية تطبيق نظام الحكم في الإسلام من خلال المسلمين أنفسهم كأمة وليسوا كأنبياء أو معصومين.

ثم رقى الدولة الأموية واستقرارها وحضارة العباسيين وتقدمهم وجهاد العثمانيين ونشرهم لدين الله سبحانه وتعالى في ربوع الدنيا.

والصور المضيئة في تاريخ الدولة الإسلامية لا حصر لها، وإن ما كانت عليه الدولة الإسلامية حتى في حالات ضعفها أفضل آلاف المرات مما أصبحت عليه الأمة الإسلامية الآن، من بُعد عن الدين وتفرق وتنازع وهوان وضعف وحاجة وذل للدول الكافرة، فهل كان في تاريخ الدول الإسلامية نزول لشريعة الله سبحانه وتعالى بهذه الصورة الحاضرة ؟

أو كان هناك تحلل من القيم والأخلاق كما هو الحال في واقعنا ؟

وهل تحكم الكفار في الأقطار الإسلامية قاطبة وعملوا فيها القتل والتشريد والفرقة والحصار، وجعلوا دماء المسلمين تسيل في كل شبر من الأرض لا ثمن لها، وليس لها من يبكى عليها أو يدافع عنها كما هو الحال الآن؟

إنه لا شك حدثت أخطاء كثيرة في تاريخ الدولة الإسلامية، و لم يقل أحد إن تاريخ الدولة الإسلامية كان صفحة بيضاء خالية من الأخطاء ولكن تلك الأخطاء لم تكن في المنهج الإسلامي نفسه، إنما كانت في التطبيق، فالمنهج واضح، والبشر هم البشر فيهم الخطأ والصواب، فعلينا أن نقتدي

بالمصيب ونتجنب المخطئ، ونستفيد من تجربته حتى لا نقع في مثل ما وقع فيه.

أما إذا كان العيب الذي يزعمه في الإسلام ونظام حكمه وشريعته فهذا أمر يجعلنا نتوقف عن المناقشة ونكتفي بتلاوة قول الله تعالى: ﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ "(٦٦). وقوله سبحانه: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنْ الْخَاسِرِينَ ﴾"(٦٧).

وبعد كل ذلك فإننا لا نسلم بالإدعاء القائل بأن كل التاريخ الإسلامي بعد الراشدين كان سيئا، ولكن يمكن أن نقول: إنه قد حدث بعض التراجع في بعض الأحكام والعدالة الاجتماعية وعلاقة الحاكم بالمحكوم. إلا أنه في هذا التراجع لم نجد دولة من الدول عبر تاريخ الخلافة كله جرأت على أن تحكم بغير ما أنزل الله.

فقد كان القضاة يحكمون بالقرآن الكريم، وبالسنة المطهرة، وكان رئيس الدولة حتى في حالة اغتصاب الحكم يبرر وجوده في منصبه بأنه يحكم بما أنزل الله وبأنه يمثل الإسلام ويجاهد الدول الغازية "(٦٨)

(٦٦) سورة النساء، الآية (٦٥).
(٦٧) سورة آل عمران، الآية (٨٥).
(٦٨) مصر بين الدولة الإسلامية والدول المدنية ص٦٣ ، مناظرة بين علماء الإسلام الشيخ محمد الغزالي، د. محمد عماره، المستشار مأمون الهضيبي، مع نماذج من العلمانيين منهم: د. فرج فوده، د. محمد أحمد خلف/ وأدارها د. سمير سرحان، في معرض الكتاب في ١٩٩٢/١/٨.

يقول توماس كارليل المفكر الفرنسي الشهير مبينا ما قدمه الإسلام كنظام في حياة المسلمين.

" لقد أخرج الله العرب بالإسلام من الظلام إلى النور، وأحيا به من العرب أمة هادمة، وأرضا جامدة، وهل كانت إلا فئة خامدة فقيرة، فإذا الخمول قد استحال شهرة، والغموض نباهة، والضعة رفعة، والضعف قوة، والشرارة حريق وسع نوره الأنحاء، وعم ضوؤه الأرجاء، وعقد شعاعه الشمال بالجنوب، والمشرق بالمغرب، وما هو إلا قرن بعد هذا الحادث حتى أصبح لدولة العرب رجل في الهند ورجل في الأندلس وأشرقت دراسة الإسلام حقبا عديدة ودهوراً مديدة بنور الحق والهدى على نصف المعمورة"(٦٩).

بعد هذه الشهادة أيستطيع باحث منصف أن يقول إن التاريخ الإسلامي كان كله ظلاماً ومليئاً بالظلم والاستبداد؟!

وإنني أحذر من الثقة المطلقة في بعض المصادر التاريخية لأن "تاريخ الحكم الإسلامي وأحوال الحكام لا تؤخذ من أعداء الإسلام أو المبغضين له، أو من الذين دخلوا الإسلام نفاقا ... ومن المؤرخين من خضع لعامل الاختلاف المذهبي مما كان له أثره في كتابة بعض الحوادث وخضع بعضهم لأغراض الحكام حين الكتابة عن الذين سبقوهم ... فضلاً عن أنه لم يكتب

(٦٩) د. يحيى هاشم، نقلاً من حقيقة العلمانية، ص١٠٦.

تاريخ المجتمع الإسلامي كتابة دقيقة تمحيصية، والذي كُتِبَ هو أخبار الحكام، وهذه لا تعطي صورة واضحة عن المجتمع الإسلامي ولا عن حكم الإسلام"[٧٠] والباحث المدقق لا يجوز له أن يستعمل القياس الشمولي – التعميم– على المجتمع من تاريخ بعض أفراده أو حكامه كما لا يجوز له أن يحكم على نواحي المجتمع كلها بالفساد لفساد حاكمه، أو لفساد ناحية فيه.

أما ادعاؤهم أن الاحتجاج بعصر الخلفاء الراشدين دليل على أن دعاة الخلافة لم يجدوا ما يستشهدون به طوال تاريخ الحكم الإسلامي فهذا ادعاء باطل لأنه "إذا كان من المسلم به أن عصر الخلفاء الراشدين كان العصر الأقرب إلى مثالية النظام الإسلامي، فإن هذا لا يعني شذوذية هذا العصر، وأنه كما يقول أحد العلمانيين عن عمر بن الخطاب: شخصية ظهرت مرة واحدة ولن تتكرر " هذا قول غير صحيح في مقياس النظرة العلمية أو النظرة الدينية على السواء فمن ناحية النظرة العلمية يجب أن نؤمن بموضوعية السبب والنتيجة وأنه كلما حصل السبب كان لابد للنتيجة أن تحصل، وليس في الأمر خصوصية فرض، أو معجزة عصر، وكان الأقدر –للعلمانيين– ألا يلجئوا إلى مثل هذا القول لو أخلصوا لمنهجهم العلمي. والنظرة العلمية تسجل الظاهرة لتبحث عن أسبابها، ولا تقفل باب البحث بمقولة "حادثة حصلت ولن تتكرر".

(٧٠) المرجع السابق، ص١٠٨.

على أن النظام الإسلامي لم يكن مجرد حادثة عابرة، ولكنه كان عصراً إنسانياً وأجيالا بشرية عاشت على أرض الواقع، و لم يكن سبب لظهورها غير النظام الإسلامي.

والنظرة العلمية هنا تقول لنا – تبعا لمنطق السبب والنتيجة – إنه حيث يتوفر السبب –وهو النظام الإسلامي– يظهر الإنسان المشابه لإنسان عصر الخلفاء الراشدين.

فالعلمانيون قد اعترفوا بظهور النظام الإسلامي في مجال التطبيق، وعليهم أن يعترفوا بإمكانية التكرار كلما اجتمعت الأسباب النابعة من هذا النظام "[٧١].

ومع ذلك فإنه من الظلم والجهل بتاريخ الإسلام أن يزعم أحد أنه بعد عصر الراشدين كان الحكم كله استبدادا وظلاماً، فهناك نماذج طيبة عبر تاريخ الخلافة الإسلامية، والناظر في العلوم الإسلامية شرعيه أو مدنية، ونتاج الفكر الإسلامي وكل ما نعده فخراً أمام الدنيا كلها والتي تتلمذت عليه أوروباً لهو خير دليل وأوضح مثال على أن العصور التالية للخلافة الراشدة كانت بها صور مضيئة يفخر بها كل مسلم.

(٧١) المرجع السابق، ص١١٢.

أما عن الادعاء الذي يزعم فيه العلمانيون بخطورة الدولة الإسلامية على الوحدة الوطنية وأنها ستثير الفتنة والحروب بين أفراد الوطن الواحد ووصل بهم الأمر إلى أن قال أحدهم – الدكتور / فرج فوده:-

" بأن وحدة الوطن وحضارة الإنسان تأبى الحكم الديني الآن مهما كانت النسبة ٩٥%، ٩٠% لا يقبل أحد أن ينقسم الوطن، وأن يشعر فريق من المواطنين قل أو كثر بالخوف من أن يحكم بعقيدة الآخرين، أو يشعر فريق آخر بالزهو للحكم بعقيدته "(٧٢).

وعلى صفحات مجلة روز اليوسف يسأل / عبد الستار الطويلة مستنكراً: " أي نوع من أنواع الخلافة والخلفاء يريدون ؟ أهي مؤامرة تدبر بليل لإثارة فتنة دينية طائفية في البلاد، على لا شيء، على نظام حكم جائز ثبت تاريخيا أنه في معظم فترات حكمه كان متخلفاً رجعياً قاسياً!!!

نريد أن ننتبه إلى أمر خطير هو أننا لو نصبنا مثلا خليفة للمسلمين في مصر فإن ذلك إيذان ببدء حرب صليبية جديدة على النطاق العالمي، ذلك لأن خليفة المسلمين هو إمامهم في كل مكان، وتقع عليه مسئولية رعاية شئونهم وتحريرهم إذا لزم الأمر من حكم الكفار ...

وطبعا الحكومات المسيحية والملحدة في البلاد الاشتراكية حكومات

(٧٢) مناظرة معرض الكتاب الدولي "مصر بين الدولة الدينية والدولة المدنية "، فرج فوده، ص٥٧.

كافرة يجب تحرير المسلمين الخاضعين لها.

الدعوة إلى الخلافة فوق أنها ضد الديموقراطية، وضد أي دستور حضاري، كما أنها دعوة خبيثة، إلا أنها خطيرة غاية الخطورة، وتنذر بشر مستطير.

فافتحوا عيونكم جيداً، ولنتمسك بديموقراطيتنا، ولنتوسع فيها، حتى نخلص البلاد من تلك الأفكار المدمرة "[٧٣].

بادئ ذي بدء أود أن أسال هؤلاء العلمانيين سؤالا: ماذا يقصدون بالوحدة الوطنية ؟ أهي العلاقة بين المسلمين وغيرهم؟

إذا كان الأمر كذلك " فإن قيام الدولة الإسلامية لا يضر تلك العلاقة، ولا ينتج عنه إجبار الآخرين على هجر أديانهم وعقائدهم، ولا حرمانهم من حقوقهم التي حددها الإسلام نفسه لهم بتوسع لم يصل إليه العلمانيون ولا غيرهم "[٧٤].

إن الاستقرار والتعايش وتجنب الفتنة لا يكون بالعلمانية، كما لا يكون بمحاولات طمس الحدود ما بين العقيدتين، لأن هذا هو مكمن الإثارة الحقيقي، لكن الحدود العقدية حاسمة بارزة كما يريدها الله وكما يقررها الطرفان من كل جانب.

(٧٣) مجلة روز اليوسف، عدد ١٩٨٨/١/١٨م.
(٧٤) د. محمد يحيى، ورقة ثقافية في الرد على العلمانيين، ص٦٩.

ولكن الطريق إلى الاستقرار والتعايش وتجنب الفتنة يتحقق كما تحقق دائما في تاريخ الإسلام بتطبيق شريعة الله – شريعة الإسلام – التي تعطي أهل الكتاب حقوقهم الاجتماعية كاملة "لهم ما لنا وعليهم ما علينا".

ومن هنا ساد الأمن والتسامح طوال التاريخ.

وأي مساس بهذه الصيغة هو وحده الذي يهدد الاستقرار ويهدد التعايش ويدعو إلى الفتنة.

لقد كان رسول الله – ﷺ – يحضر ولائم أهل الكتاب، ويشيع جنازاتهم، ويعود مرضاهم ويزورهم ويحسن استقبالهم ويفرش لهم عباءته.

﴿ لاَ يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنْ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ "(٧٥).

وسيدنا عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – اصطنع بعض سبى قيسارية كتّابا وأدخلهم في خدمة الدولة.

وسيدنا أبو موسى الأشعرى اتخذ له كاتباً نصرانياً

وسيدنا معاوية استعمل في قصره طبيباً نصرانياً هو " ابن أثال " الذي كافأه بوضع الجزية عنه وتوليته خراج حمص.

---

(٧٥) سورة الممتحنة، الآية (٨).

واستعمل سليمان بن عبد الملك لنفسه كاتباً نصرانياً يسمى " ابن البطريق النقا". وجعله ناظراً على مبانيه في الرملة.

وعين المنصور يهودياً اسمه موسى أحد اثنين من جباة الخراج. وكان زمرة المطببين أيام الخلافة يهوداً ومسيحيين على صلة وثيقة بحكامهم وبالرعية على السواء.

ولقد استعين بالمهندسين النصارى في تشييد المساجد الكبرى والقصور، وكان النصارى في بلاد الخلافة الإسلامية يتعاملون مع عالم النصرانية بدون مشقة ويتمكنون من أن يتلقوا منهم إعانات لمؤسساتهم الدينية، وكان المسيحيون المقيمون ببلاد الخلافة مرتبطين ببعضهم ارتباطا وثيقا "[٧٦].

من خلال ما سبق يتضح أن اليهود والنصارى قد عاشوا في بحبوحة من العيش في ظل الدولة الإسلامية، متمتعين بكافة حقوقهم في جميع المجالات، ومن هنا فإن إبعاد الإسلام عن مجال الحكم وإحلال نظم أخري محله لهو أشد ضررا على الوحدة الوطنية وعلى الإسلام والمسيحية معاً وهذا ما شهد به علماء ومفكرو ومثقفو المسيحية أنفسهم الذين لم تخدعهم العلمانية.

(٧٦) د. يحيى هاشم فرغلي، حقيقية العلمانية بين الخرافة والتخريب، ص٣٣٦.

فها هو ميشيل عفلق يقول: "لا يوجد عربي غير مسلم! فالإسلام تاريخنا، وهو بطولاتنا، هو لغتنا، وفلسفتنا ونظرتنا إلى الكون ... إنه الثقافة القومية الموحدة للعرب على اختلاف أديانهم ومذاهبهم ... وبهذا المعنى لا يوجد عربي غير مسلم، إذا كان هذا العربي صادق العروبة، وإذا كان متجرداً من الأهواء، ومتجرداً من المصالح الذاتية ... وإن المسيحيين العرب – عندما تستيقظ فيهم قوميتهم – سوف يعرفون بأن الإسلام هو لهم ثقافة قومية يجب أن يتشبعوا بها، ويحبوها، ويحرصوا عليها حرصهم على أثمن شيء في عروبتهم ... ولئن كان عجبي شديداً للمسلم الذي لا يحب العرب فعجبي أشد للعربي الذي لا يحب الإسلام"(٧٧).

وللمفكر البارز الدكتور أنور عبد الملك كلمته التي قالها للمصور: " أنا مصري، عربي، شرقي، قبطي، المولد ...مسلم حضارة "(٧٨).

والأستاذ / سليمان مرقس: أستاذ القانون المدني – يقول عن الشريعة الإسلامية: " لقد غدت الشريعة الإسلامية نظاماً قانونياً كاملاً، يعد أرقى الشرائع، بل إن بعض نظمها يفضل ما يقابله من نظم في أحدث الشرائع العصرية"(٧٩).

(٧٧) د. محمد عماره: الإسلام والسياسة، ص١٥٠.
(٧٨) مجلة المصور، عدد ٣١١٩ في ١٩٨٤/٧/٢٠م.
(٧٩) صحيفة الوفد: دراسة للمستشار / محمود الشربيني، في ١٩٥٨/٣/٢٨.

والأنبا يوحنا قلته –وهو كاثوليكي مصري يقول: " أوافق تماماً على أن أكون مصرياً مسيحياً تحت حضارة إسلامية، بل أنا مسلم ثقافة مائة في المائة.. أنا عضو في الحضارة الإسلامية كما تعلمتها في الجامعة المصرية – تعلمت أن النبي – ﷺ– سمح لمسيحي اليمن أن يصلوا صلاة الصبح في مسجد المدينة ... فإذا كانت الحضارة الإسلامية بهذه الصورة التي تجعل الدولة الإسلامية تحارب لتحرير الأسير المسيحي، والتي تعلى من قيمة الإنسان كخليفة عن الله في الأرض، فكلنا مسلمون حضارة وثقافة، وإنه ليشرفني، وأفتخر أنني مسيحي عربي أعيش في حضارة إسلامية وفي بلد إسلامي، وأساهم وأبني مع مجتمع المواطنين هذه الحضارة الرائعة"(٨٠).

ثم هاهو رأس الكنيسة القبطية وبابا الأقباط الأرثوذكس الأنبا شنودة يقول: "عن الأقباط – في ظل حكم الشريعة الإسلامية – يكونون أسعد حالاً وأكثر أمناً، ولقد كانوا كذلك في الماضي، حينما كان حكم الشريعة هو السائد ... نحن نتوق إلى أن نعيش في ظل "لهم مالنا وعليهم ما علينا" إن مصر تجلب القوانين من الخارج الآن، وتطبقها علينا، ونحن ليس عندنا ما في الإسلام من قوانين مفصلة، فكيف نرضى بالقوانين المجلوبة، ولا نرضى بقوانين الإسلام "(٨١)؟!

(٨٠) د. محمد عمارة، الإسلام والسياسة، ص١٥١.
(٨١) جريدة الأهرام في ١٩٨٥/٣/٦م.

في ضوء الحقائق التي قدمناها نفهم معنى ومغزى هذه الكلمات المعبرة عن "عقل – العقلاء"! من إخواننا المسيحيين.

أبعد ذلك يحق للعلمانية أن تفرض نفسها على المجتمع الإسلامي بادعاء أنها لسان حال "المسيحية" أو المدافع عنها ؟ أم أنه محض نفاق ؟ وإن غرضها الأساسي محاربة الإسلام، بما يجره ذلك من خراب على أتباع الديانتين معاً؟!

والخلاص الحق للدينين معاً إنما يكون بالتجربة التي حققها الإسلام من قبل شريعة وحضارة هذا أو الطوفان.

والطوفان هنا هو " العلمانية " التي لا ترعى لأحد الدينين إلاً ولاذمة.

## المبحث السادس
## موقف الإسلام من العلمانية

إن العلمانية نشأت في المجتمعات النصرانية في أوروبا وأمريكا كرد فعل لظلم الكنيسة الكهنوتية، وكعمل فكر مضاد للفكر الاستبدادي الكنسي، وكثورة مضادة للتحالف الملكي والبابوي، وكزعم علمي للرفض المطلق للحكم الديني، وكتطبيق علمي لضرورة فصل الدين عن الدولة، أو الدين عن السياسة.

إن العلمانية ظهرت في أوروبا كرد فعل خاطئ لدين محرف وأوضاع

خاطئة وأنها نتاج شيء لظروف غير طبيعية.

وما دامت العلمانية نشأت في بيئة غريبة، ومن خلال أوضاع الكنيسة وما لحقها من مفاهيم وانحرافات واتباع للأهواء، فمن الظلم أن ننقل ما حدث في أوروبا باتجاه الدين الذي لعبت به يد التحريف والهوى إلى بلادنا التي عرفت في ظل الإسلام العدالة والسيادة.

إذن لا يوجد هناك أدنى مبرر لطرح شعار العلمانية أو الدعوة إليها في العالم الإسلامي، لأن جميع مبررات طرحه في المجتمع الأوربي من مفهوم الحكم الديني ومن الصراع بين الكنيسة والعلم لا وجود لها في العالم الإسلامي والحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي، ومعنى ذلك أن هذا الشعار لا معنى له في إطار الفكر والثقافة الإسلامية.

يقول الدكتور/ عدنان زرزور: " والدعوة إلى العلمانية في الشعوب الإسلامية موقف تغريب بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى، وكل ما يبنى على التغريب من مواقف ومعطيات فكرية وسلوكية واجتماعية بل سياسة أيضا، ونحن لا نشك في هذه المناسبة في أن دعاة العلمانية عندنا لم يكونوا إلا ضحايا الغزو الفكري من وجه وطلائع له ومبشرين به من وجه آخر، وإذا كانت العلمانية في المجتمع الأوروبي تمثل موقف حياد أو موقف تحييد لرجال الكنيسة وإقصاء نظري لهم عن شؤون المجتمع والدولة لأنهم كانوا – إن صح

التعبير – في موقف تجاوز، فإنها في المجتمع الإسلامي لن يكون إلا موقف عدوان على الإسلام والمسلمين "[٨٢].

من هنا أستطيع أن أقول: إن تناقض العلمانية في فصلها الدين عن الدولة وشعارها في إبعاد الدين عن السياسة لا محل له في الواقع الإسلامي، ولا يصلح تطبيقه في المجتمعات الإسلامية مطلقا، فالإسلام لا توجد فيه تناقضات عقائدية، والإسلام لا يوجد فيه كهنوت مقدس، أو لاهوت خرافي متناقض، وعقيدة الإسلام تخلو من مثل هذه التفاهات العقائدية والرذائل الفكرية، ودين الإسلام دين العدالة، والسماحة والمساواة ينأى بنفسه عن كل مظاهر الاستبداد، والظلم والتسلط والقهر، والجبروت الكهنوتي، ودين الإسلام دين العلم والمعرفة والحقيقة العلمية، لا يحجر على العقل، ولا يحارب العلم، فالمعالم الإلهية للعقيدة الإسلامية تتناقض تماما وتتعارض مع مقولة العلمانية بفصل الدين الإسلامي عن دولته، أو فصله عن الحكم، أو السياسة، أو العلم، وتسعفنا الدلائل النصية والعقلية والتاريخية والعلمية في الحكم على ألوهية عقيدتنا، وفعالية وتوازن شريعتنا شمولية وكفاءة منهجية الإسلام في معالجة جميع أمور الحياة، وشؤون الأفراد الدينية والدنيوية من عبادات ومعاملات، وعلاقات وعقوبات، ولجميع النشاطات السياسية والاقتصادية والمالية، لذلك فالإسلام يرفض العلمانية لأنه:-

(٨٢) د. عدنان زرزور، دراسات في الفكر الإسلامي، ص١٥٩.

يوم أن شدد في دعوته على التوحيد ومقاومة الشرك في العبادات قصد إلى رفع الازدواج والثنائية في تحديد مصير الإنسان، وفي توجيهه، وإلى المساواة – فيما عدا الله – بين الناس، فليس بينهم معصوم سوى رسول الله – ﷺ – والجميع بعد ذلك سواء في جواز الخطأ والصواب في تفكيرهم وسلوكهم وتصرفاتهم.

ومعنى ذلك: أنه ليست هناك حكومة إلهية من مجموعة من الناس أياً كان إخلاصهم في العبادة لله، وأيا كانت منزلتهم منه، إذا أخذت بتعاليم القرآن واتبعت مبادئها في سياستها، فهي حكومة إنسانية تخضع للخطأ والصواب.

ولذا عند التراع في الأمر مع القائمين على شأن الحكومة الإسلامية – فالقرآن يطلب العودة بالتراع بين الطرفين – طرف الحاكمين وطرف المحكومين – إلى كتاب الله وإلى سنة رسول الله – ﷺ – التي تعبر عنه توضيحا أو تطبيقاً.

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ۞ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ

مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّـهِ وَالْيَوْمِ الْأَخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاَ ﴾"(٨٣)

فهنا يأمر القرآن الكريم المؤمنين جميعا من أولى الأمر منهم وغيرهم بأربعة مبادئ.

أولاً: بأداء الأمانات إلى أهلها، وفي مقدمتها أداء صاحب الولاية العامة أمانة ولايته لمن يولى عليهم، وبالأخص العمل طبقا لما جاء في كتاب الله.

ثانياً: بمباشرة العدل في الحكم والقضاء بين الأطراف المعنية في الخصومة.

ثالثاً: بالطاعة لما لله من قوانين ومبادئ في صورة أوامر أو نَوَاهٍ أو وصايا وطبقاً لما جاء في كتابه الكريم، وفي سنة رسوله – ﷺ– قولاً وعملاً.

رابعاً: بالاحتكام إلى ما لله من القرآن الكريم وسنة رسول –ﷺ– من مبادئ وأحكام وتطبيق عملي، عند التنازع بينهم وبين أولى الأمر منهم.

فطلب القرآن الكريم رجوع المؤمنين جميعا إلى ما لله في الكتاب والسنة – ما بين ولى الأمر، ومن عداه في الجماعة – يوضح في غير إبهام، أن أصحاب الحكم والولاية العامة في الجماعة المؤمنة لا يرتفع مستواهم إلى

(٨٣) سورة النساء، الآيات (٥٨، ٥٩).

"العصمة" عن الخطأ، وإنما يجوز عليهم الخطأ كما يجوز عليهم الصواب في الشئون الدنيوية "(٨٤).

وإذا كانت دعوة التوحيد في الألوهية في الإسلام تستهدف المساواة – فيها عدا الله– بين الناس في الاعتبار الإنساني، وفي البقاء في المستوى الإنساني وفي المشاركة في خصائص الإنسانية من الصواب والخطأ، فإنه ليس هناك مكان في جماعة المؤمنين، أو في المجتمع الإسلامى، إلى نزاع حول السلطة على أساس أن بعض المجموعات في المجتمع يتميز عن المجموعات الأخرى على أساس غير إنساني، فهذه مجموعة لها قداسة، ولقولها عصمة، وهذه مجموعة أو مجموعات أخري ليست لها قداسة، وليست لأقوالها عصمة، كما هو تصوير مبعث النزاع بين الكنيسة والدولة في الفكر الأوروبي.

كذلك: دعوة القرآن، إلى أن الدنيا دار اختبار وابتلاء، وأنها مرحلة أولى تسبق مرحلة الآخرة، لا تعنى إطلاقا "شَرِّيَةَ " هذه الدنيا، ولا " الانصراف " عن متعها وزينتها، ومن ثم لا تعنى أن الاشتغال بها أمر قليل الشأن في ذاته، وأقل شأناً من الانشغال بدين الله.

إن أبا بكر ﷺ وله حظه في الإسلام وفي الدعوة إلى دين الله – كان يباشر أمرا من أمور الدنيا في التجارة، حتى بعد أن ولى الخلافة أراد الاستمرار في النزول إلى الأسواق ومباشرة تجارته، حتى لقيه عمر ﷺ

(٨٤) د. محمد البهي، العلمانية والإسلام، ص٤٧.

ونصحه بالأعراض عن ذلك، طالما هو شغل بأمر المسلمين، ثم جمع الصحابة وسألهم أن يقروا له في "بيت المال" ما يسد حاجته، فقرروا له ما يكفيه وأسرته، فلو أن التجارة مثلا كشأن من شؤون الدنيا شَرٌّ أو أمر بخس في نظر الإسلام إلى الدنيا لما أقبل عليها مسلم له قدم راسخة في الإسلام كأبي بكر ﷺ واتخذ منها مصدر رزقه ومعيشة أسرته فضلا عن أن يرغب في الاستمرار في ممارستها بعد أن ولى أمر المسلمين.

واستنكار القرآن الكريم لتحريم زينة الدنيا، وتأكيده – بعد هذا الاستنكار – حلّ ما في الدنيا من طيبات من الرزق وزينة فيها الإنسان، في قول الله تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنْ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۞ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾"(٨٥).

هذا وذاك يدل على أن المتع المادية ليست شراً، وأن المادة ليست بخسة يجب تجنبها –أو على الأقل– يجب أن ينظر إليها في احتكار وازدراء، كما ينظر لمن يباشر العمل فيها بنظرة أقل، وما أعلنته الآية الثانية هنا من محرمات أخري في مقابلها وهى: ارتكاب المنكرات والظلم والانحراف، والشرك بالله

(٨٥) سورة الأعراف، الآيات (٣٢، ٣٣).

والاختلاق فيما يوصف به، يؤيد ان ماديات الحياة الدنيا في وضع سائغ ومقبول يحمل على استحسانها والرضا بها والسعى إليها من الإنسان نفسه وقد طلب القرآن الكريم من مجتمع المسلمين ألا يكون أداء العبادة عاملا على تجاهل الدنيا وعدم الحركة فيها لتحصيل الرزق كما لا يكون السعى شاغلاً عن أداء العبادة.

يقول الله تعالى﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِي لِلصَّلاَةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۞ فَإِذَا قُضِيَتْ الصَّلاَةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾(٨٦)

فأداء العبادة له منزلته في الإسلام وأداء السعى في تحصيل متع الحياة له منزلته في الإسلام كذلك.

ويوم أن وجه الإسلام دعوته إلى أهل الكتاب بقوله: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا ولاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾(٨٧)

فطلب إليهم الاتفاق على احتفاظ الإنسان بسيادته وكرامته، وكذلك

(٨٦) سورة الجمعة، الآيات (٩، ١٠).
(٨٧) سورة آل عمران، الآية (٦٤).

ليكون أهل الكتاب على قدم المساواة مع المسلمين في المحافظة على البشرية من الإهانة والمذلة، وفي ممارسة حق الاعتبار الإنساني في غير وحشية ولا خوف.

لم يكن الإسلام إذن ذا نزعة انفرادية في تولي السلطة، ولا ذا ميل متطرف للقضاء على معارضة المعارضين، وبذلك يقضى القرآن الكريم في دعوته على نزعة الاستئثار بالسلطة لفريق من الناس دون فريق آخر، وهى تلك النزعة الدافع إلى العلمانية.

والإسلام في سننه وقوانينه وتشريعاته، نلاحظ أنها مبادئ دستورية عامة، أى أن الإسلام لم يفرض نظاماً معيناً من أنظمة الحكم، وذلك ليترك لكل أمة حرية ما تراه ملائما لحالها وما تقتضيه مصالحها.

والإسلام إذا كان يقيم الغالب الأعم من نظم الحياة الإنسانية على مبادئ عامة فإن من بين هذه المبادئ مبدأ " الاجتهاد " الذي يتيح للإنسان المؤمن ممارسة استقلاله في إطار هذه المبادئ العامة التي جاء بها الإسلام، للبحث عن ملائمة الأحداث المتجددة في حياة الإنسان المتطورة.

فليس مبدأ الاجتهاد إلا تأملا وتفكيراً في تكييف الوقائع التي لم تقع من قبل وليس إلا إرجاعها إلى مبدأ أو آخر من تلك المبادئ العامة التي تحكم التشريع.

أما ختم الرسالة الإلهية، واعتقاد انتهائها، فإنه يشعر الإنسان بمدى استقلاله ويحول بينه وبين أن يترقب إملاء آخر له في وقت آخر لاحق، وهو إذ يمارس هذا الاستقلال في التفكير، فإنه لا يكون مرتبطاً إلا بتلك المبادئ الموضوعية والعامة، وهى التي تحدد نظام الحياة للإنسان في جوانبها المتعددة: السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والمالية والأسرية والتوجيهية"(٨٨).

وقد أكبر الإسلام من شأن العقل وجعله أداة صالحة للتعامل مع الكون المادي واستنباط السنن التي تحكمه في محاولة للاستفادة منها في تحسين أوضاع البشرية، وقد نعى القرآن الكريم على من يعطلون عقولهم ويتابعون على غير هدى، وحمل القرآن عليهم وتوعدهم بجهنم وبئس المصير، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنْ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمْ الْغَافِلُونَ﴾(٨٩).

ويقول سبحانه ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ﴾(٩٠).

(٨٨) د. محمد البهي، الإسلام في حل مشاكل المجتمعات الإسلامية المعاصرة، ص٣٨ – ٤٢ (باختصار وتصرف).
(٨٩) سورة الأعراف، الآية (١٧٦).
(٩٠) سورة البقرة، الآية (١٧١).

ويفسر الإمام محمد عبده هذه الآية بقولة: "إن هذه الآية صريحة في أن التقليد بغير عقل ولا هداية هو شأن الكافرين، وأن المرء لا يكون مؤمناً إلا إذا عقل دينه وعرفه بنفسه حتى اقتنع به، فمن ربي على التسليم بغير عقل والعمل بغير فقه فهو غير مؤمن فليس القصد من الإيمان أن يذلل الإنسان للخير كما يذلل الحيوان، بل القصد من ذلك أن يرتقى عقله وترتقي نفسه بالعمل، فيعمل الخير النافع المرضى لله ويترك الشرك لأنه يفهم سوء عاقبته ودرجة مضرته "(٩١).

والإسلام لم يكن في يوم ما عقبة أمام التكنولوجيا، أو الكمبيوتر أو علوم الكهرباء أو الذرة والإلكترونات أو الفلك أو علوم الفضاء، و لم يحدث قط قديما أو حديثا أن كان هناك تناقض بين الإسلام والعلم و لم يحدث أن اضطهد الحكام المسلمون العلماء أو سجنوهم بسبب نظرية في الفلك وقولة في الكيمياء، بل كان العكس هو القاعدة فقد شجع الحكام المسلمون العلماء دائما وأغدقوا عليهم المنح والعطايا لتشجيعهم على العلم والبحث والدراسة"(٩٢).

إن كلمة العلم في الدين الإسلامي وردت في القرآن الكريم كمصطلح على الدين نفسه الذي علمه الله أنبياءه ورسله. قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ

(٩١) محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ص٢/٩٤.
(٩٢) د. مصطفي محمود، المؤامرة الكبرى، ص٤٦ (بتصرف).

أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنْ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنْ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ﴾(٩٣). وقال جل شأنه: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنْ الْعِلْمِ﴾(٩٤). وحسب الإسلام أن يذكر له بكل فخر وإجلال أن أول آية نزلت على قلب رسول الله ﷺ هي: ﴿اقْرَأْ باسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۞ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۞ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ۞ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۞عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾(٩٥).فالعلم في الإسلام عبادة بل هو أجل وأعظم العبادات لله ﷻ- إذا كان بعيداً عن الهوى والغرض خالصاً لطلب الحقيقة وكشف أسرار الكون لتسخيرها لمنفعة بني البشر. قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾(٩٦).

إن الدين الإسلامي هو المنهج الذي يقود البشرية؛ لأن خصائص المنهج الذي يقود البشرية كما يقول إمام الدعاة الشيخ محمد متولي الشعراوي يجب:

أولاً: أن يوثق في أنه الصادر عن الله بدون تدخل من البشرية.

ثانياً: أن يكون مستوعبا لكل أقضية الحياة.

ثالثاً: ألا يتعارض مع حقائق الكون المادية التي سوف تنتهي إليها العقول.

(٩٣) سورة البقرة، الآية (١٢٠).
(٩٤) سورة آل عمران، الآية (٦١).
(٩٥) سورة العلق، الآيات (١- ٥).
(٩٦) سورة فاطر، من الآية (٢٨).

رابعاً: أن تكون شعائره التي تأخذ الإنسان من حركة حياته إلى حركة خاصة بربه بسيطة لا تستوجب كل وقته.

فإذا نظرنا إلى هذه العناصر لا نجدها تتمثل إلا في دين الإسلام وديـــن كهذا استوفى هذه العناصر لا شك أنه يحمل معه عوامل خلود "[٩٧].

بناء على كل ما تقدم يتضح لنا أنه لا حاجة بنا إلى هذه العلمانية، ولا مكان لها على أرض العرب والمسلمين، وأن مضمونها مرفوض كل الـــرفض منا نحن المسلمين، فإسلامنا يدعونا إلى العلم ويحضنا عليه، كمـــا أننـــا لا نتخوف من دخول الدين ميدان الحياة فما جدوى الدين إذا لم يعالج مشاكل الحياة ؟! وقد دخل الدين ليصلح ما أفسده العلم في بلاد العلمانية وخاصـــة بعد أن أقر الواقع للمتحمسين "من بني وطني" لفكر العلمانية: هل لكـــم أن تعوا دينكم جيداً خيراً لكم أن تفعلوا "فمن يرد الله به خيراً يفقهه في الدين".

وأقول لأهل العلمانية في خارج حدود أمتي بعد أن سقطت الحجـــج وتهاوت الدعاوى " خير لكم أن تأتونا مسلمين ".

(٩٧) الشيخ محمد متولي الشعراوي، هذا هو الإسلام، ص١٩ – ٢٠.

# قائمة بأهم المصادر والمراجع

**أولا: القرآن الكريم كلام رب العالمين**

**ثانياً: المراجع العامة**

(١) أبو الحسن الندوي، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين.

(٢) د. السيد أحمد فراج،جذور العلمانية

(٣) أنور الجندي، الإسلام في وجه التغريب، ط٣، مصر: دار الوفاء للطباعة والنشر (١٩٨٧م) دار الاعتصام.

(٤) أندرية كريسون، تيارات الفكر الفلسفي، ترجمة: نهاد رضا، ط٢، لبنان: منشورات عويدات (١٩٨٢م).

(٥) براتراندرسل، تاريخ الفلسفة الغربية، ترجمة: د. زكى نجيب محمود، ط٢، مصر: لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة، (١٩٦٨م)، والهيئة المصرية العامة للكتاب (١٩٧٧م).

(٦) د. جمال عبد الستار، الخلافة الإسلامية والتيارات المعادية لها في العصر الحديث، رسالة ماجستير، مخطوطة بكلية أصول الدين بالقاهرة رقم ٢١٠٢ (١٩٩٥م).

(٧) د. سفر عبد الرحمن الحوالي، العلمانية نشأتها وتطورها وآثارها في الحياة الإسلامية المعاصرة، ط٢، مكتب الطيب لخدمة التراث الإسلامي والرسائل الجامعية (١٩٩٩م).

(٨) د. عبد العظيم المطعني، الإسلام في مواجهة الأيـــديولوجيات المعاصرة، ط١، مكتبة وهبة، (١٩٧٨م).

(٩) د. على جريشه، أساليب الغزو الفكري، ط٣، دار الاعتصام، والاتجاهات الفكرية المعاصرة، (١٩٩٠م) ودار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع بالمنصورة.

(١٠) د. عمر فروخ، تجديد في المسلمين لا في الإسلام.

(١١) د. عبد المعطي بيومي، الماركسية في مواجهة الدين، مصر: دار الأنصار بالقاهرة.

(١٢) د. عدنان زرزور، دراسات في الفكر الإسلامي.

(١٣) د. على عبد الرازق، الإسلام وأصول الحكم، تحقيق ونقد د. ممدوح حقي، دار مكتبة الحياة، بيروت.

(١٤) د. فرج فودة، النذير، الحقيقة الغائبة، مصر: الهيئـــة المـــصرية العامة للكتاب (١٩٩٢م).

(١٥) د. فهمي الشناوي، المؤامرة على إسقاط الخلافة، كتاب المختار الإسلامي.

(١٦) المستشار مأمون الهضيبي، مصر بين الدولة الإسلامية والدولـــة العلمانية، ج١١، مركز الإعلام العربي (١٩٩٢م).

(١٧) د. محمد البهي، الإسلام في حل مشاكل المجتمعات الإسلامية المعاصرة، ط٣، مكتبة وهبة، (١٩٨١م) والعلمانية والإسلام بين الفكر والتطبيق، هدية مجلة الأزهر (ربيع الآخر ١٤١٥هـ)، الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، ط١٢، مكتبة وهبة، (١٩٨٢م)، والفكر الإسلامي ومشكلات الأسرة، ط٣، مكتبة وهبة، (١٩٨٢م)، والفكر الإسلامي والمجتمع المعاصر، ط٣، مكتبة وهبة، (١٩٨٢م).

(١٨) الإمام محمد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم، تفسير المنار، ط٢ ، دار الفكر.

(١٩) د. محمد عمارة، نهضتنا الحديثة بين العلمانية والإسلام، ط٢، دار الرشاد، (١٩٩٧م)، الإسلام والسياسة الرد على شبهات العلمانيين، ط٣، دار الرشاد، (١٩٩٧م).

(٢٠) الداعية الإسلامي الشيخ محمد الغزالي، ظلام من الغرب، دار الاعتصام.

(٢١) محمد قطب، مذاهب فكرية معاصرة، دار الشروق.

(٢٢) إمام الدعاة محمد متولي الشعراوي، ط٨، دار الشروق، (١٩٩٣م)، وهذا هو الإسلام، ط١.

(٢٣) د. محمد محمد حسنين، الإسلام والحضارة الغربية.

(٢٤) الشيخ محمد مهدى شمس الدين، العلمانية تحليل ونقد، لبنان: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط٢، (١٩٣٨م).

(٢٥) د. محمد يحيي، ورقة ثقافية في الرد على العلمانيين، ط١، دار الزهراء للإعلام العربي، (١٩٥٣م).

(٢٦) د. مصطفي الخشاب، تاريخ الفلسفة والنظريات السياسية، ط١، مصر: لجنة البيان العربي، (١٩٥٣م).

(٢٧) د. مصطفي محمود، المؤامرة الكبرى، كتاب اليوم الصادر عن أخبار اليوم، العدد ٣٤٦.

(٢٨) د. يوسف القرضاوي، الإسلام والعلمانية وجها لوجه، ط١، مصر: دار الصحوة للنشر والتوزيع بالقاهرة، (١٩٨٧م).

(٢٩) د. يحيي هاشم فرغلي، حقيقة العلمانية بين الخرافة والتخريب، سلسلة قضايا إسلامية معاصرة تصدرها الأمانة العامة للجنة العليا للدعوة الإسلامية بالأزهر الشريف.

(٣٠) د. يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، مصر: دار المعارف بالقاهرة (١٩٦٢م).

**ثالثاً: الدوريات:**

١ - مجلة العربي الكويتية.

٢ – جريدة الأهرام بالقاهرة.

٣ – مجلة روزاليوسف.

٤ – مجلة المصور.

٥ – جريدة الوفد المصري.